اسم المادة الدراسية عربي : الأدب العربي في العصر الوسيط.

اسم المحاضرة : الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية في أدب العصور المتأخرة .

اسم التدريسي : أ. د. محمد عويد محمد الساير .

المستوى الدراسي : الثالث .

الدراستان : الصباحي / المسائي .

الحياة السياسية :

أطلَّ القرن السابع للهجرة على الديار الإسلامية وهي في حالة ضعف وفوضى واضطراب و انقسام ، يتنازع فيها الملوك والأمراء على النفوذ والسلطان ، ولم يكن الخليفة في بغداد بقادر على جمع الكلمة وتوحيد الصف، ولا سيما المستعصم بالله ، فقد كان ضعيف الرأي منصرفة إلى اللذة واللهو، ومسلماً أمور دولته إلى مؤيد الدين محمد بن احمد بن علي المشهور بابن العلقمي (ت ٦٥٧هـ) الذي ولي الوزارة اربعة عشر عاما وتعاضد مع التتر لاسقاط دولة بني العباس، ليستخلص الحكم النفسية وأتباعه ، ولكن خاب سعيه ،وندم حيث لا ينفع الندم ، وكان كثيرا ما يقول بعد ذلك:(وجرى القضاء بعكس ما أملته) لقد جرت الأمور على عكس ما كان يتأمل هذا الوزير من غنيمة ، وذاق من التتار الذل والهوان ، ومات مدة بعدما أصابت المسلمين بلية كبيرة لم يصابوا بمثلها من قبل . حيث قتل الخليفة المستعصم بالله وبنوه وأصحابه واستبيحت بغداد، ودمرت معالم الحضارة فيها.

إن ضعف الخلافة ، وتفرق الناس شيعة و احزاباً ، وفقدان الأمن والطمأنينة ،شجعت هولاكو على الزحف نحو العراق والبلاد العربية والسيطرة عليها ،فتوجه نحوها، واحتل في طريقه بلاد فارس، زفتك بأهلها اشد الفتك، وقبل وصوله إلى بغداد حذر المخلصون من رجال الأمة الخليفة المستعصم بالله من هذا الزحف المخيف والعواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه إن لم يبادر إلى أخذ الحيطة والحذر واعداد جيش قوي وتهيئة عُدد ، وإصلاح الأوضاع الداخلية وتقويمها ، ولكنه لم يلتفت إلى ذلك ، وترك الأمر سائبا في مهب الريح، وبقي سادرا في لهوه ، قال ابن الطقطقا (ت٧٠٩هـ):(وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك بساعة واحدة ، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم واللذات ، لا يراعون له صلاح ، وفي بعض الأمثال:

لا يسمع صياحاً ، وكتبت له الرقاع من العوام ، وفيها أنواع التخدير، والقيت فيها الأشعار في ابواب دار الخلافة ، فمن ذلك :

قـــــل للخليفـــــة : مهـــــلا أتـــــاك مـــــا لا تحـــــب
هـــا قـــد دهتـــك فنـــون مـــن المصـــائب غَـــربُ
فـــانهض بعـــزم وإلا غشـــاك ويـــل وحـــرب
كســـر وهتـــك وأســـر ضـــرب وهـــب وســـلبُ

وكل ذلك وهو عاكف على سماع الأغاني ، و استماع المثالث والمثاني ، وملكه قد أصبح واهي المباني).

لقد حاقت المخاطر بالأمة آنذاك من الشرق والغرب ، كما أشار إلى ذلك ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) بقوله : (بلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبتل بها احد من الأمم ، منها هؤلاء التتر ، قبّحهم الله ، اقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها ... ومنها خروج الفرنج ، لعنهم الله ، من المغرب إلى الشام ، وقصدهم ديار مصر ... إن الذي يسلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق ... فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصرا من عنده، فإن الناصر ، والمعين ، والذاب عن الإسلام معدوم .

وكانت ألسنة الشعراء ما تفتأ تذكر حالة الأمة المزرية والنوائب التي تنتظرها بعد غياب قوة الخلافة وهيبتها ، وسيطرة فاقدي الضمير والوجدان على الحكم ، ويعد مجد الدين اسعد بن ابراهيم النشابي (ت ٦٥٦هـ) اجرأ شاعر في هذا الميدان ، فله قصيدة يشير فيها إلى اضطراب الأوضاع في آخر عهد بني العباس وفسادها ، واختلال الإدارة، ونظام المصادرة ، والتعدي على الناس والقضاء على الحريات ، ومحو العدل والمساواة . وانتقد بشدة الوزراء ورجال الخليفة المنشغلين بعبثهم وقصفهم ، الغارقين في غيهم ومجونهم ، وتهجم على رجال الدين الذين تركوا ما أوصاهم به الله و ما اوجب عليهم من نصح العباد وارشادهم وتقويم منا دهم ، قال في اولها :

يـــا ســـائلي، ولمحـــض الحـــق يرتـــاد: اصـــخْ فعنـــدي نشـــدان وإنشـــادُ
واســـمع، فعنـــدي روايـــات تحققهـــا درايـــة وأحاديـــث وإســـنادُ
فهـــم ذكـــى وقلـــب حـــاذق يقـــظ وخـــاطر النفـــوذ النقـــد نقـــادُ
عـــن فتيـــة فتكـــوا فـــي الـــدين، وانتهكـــوا حمـــاه جهـــلا بـــرأي فيـــه إفســـادُ

وقد ادرك هذا الشاعر النابه أن المصيبة واقعة لا محالة ، والبلاء سيعم الديار ، والكارثة ستهلك الكثيرين ؛ لذلك تمنى الموت قبل رؤية الفاجعة العظمى التي يشيب من هولها الولدان، فقال:

الكفـــر اضـــرم فـــي الإســـلام جذوتـــه ولـــيس يرجـــى النـــار الكفـــر إخمـــاد
وأضـــيعة الملـــك والـــدين الحنيـــف ومـــا تلقـــاه مـــن حادثـــات الـــدهر بغـــداد
هتـــك وقتـــل وأحـــداث يشـــيب بهـــا رأس الوليـــد وتعـــذيب وإصـــفاد
ايـــن المنيـــة منـــي كـــي تســـاورني؟ فللمنيـــة إصـــدار وإيـــراد
امـــن قبـــل واقعـــة شـــنعاء مظلمـــة يشـــيب مـــن هولهـــا طفـــل واكبـــاد

لقد كان هذا الشعر وغيره صيحة في واد ونفخة في رماد ، حيث زحف (هولاكو) نحو العراق بمئتي الف محارب ودخل بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة وقتل الخليفة و أناس كثيرين ، واخضع لحكمه المدن العراقية عامة وأجزاء من الديار الشامية و اباد الكثيرين من فضلائها ، ولا سيما الملك الناصر يوسف بن محمد إبن غازي بن يوسف صاحب حلب والشام .

او هلك الطاغية هولاكو سنة ٦٦٣ للهجرة بعدما قاسى الناس في ظل حكمه الفقر والتشريد والتعذيب والسلب والنهب ... وتولى السلطة من بعده ابنه الأكبر (اباقا خان)، وكان خيرا من ابيه ، إذ طمأن الناس على انفسهم وأموالهم بعض الاطمئنان ، ومات سنة ٦٨٠ للهجرة، واجتمع امراء التتر واختاروا اخاه (نكودار خان) ، ولم يكد يتولى العرش حتى اعلن إسلامه واتخذ لنفسه اسم احمد ، ويقال : إن إسلامه كان سببا في مقتله سنة ٢٨٣ للهجرة بيد كبار قادته بالتعاون مع ابن اخيه (آرغون) الذي انتزع الملك لنفسه ، وقد انزعج الناس لهذه الفعلة القبيحة ، واستمر آرغون في الحكم إلى أن مات او سم سنة ٦٩٠ للهجرة ، وتولى السلطة من بعده أخوه (كيخا توخان) وكان رجلا سيئا متهالكا على الملذات ، لقيت البلاد في عهده اشرة مستطيرة ، وقتل سنة ٦٩٤ للهجرة ، وجاء من بعاده (بايدو) إلا أنه لم يحكم إلا شهوراً ، فقد انتزع الحكم منه (محمود غازان بن آرغون) الذي أسلم ، وأسلم معه مئة الف من جنده ، ولقي الناس في عهده شيئا من الراحة والأمن وبناء دور الحديث والقرآن والجوامع ومكاتب للأيتام ...

وبقي الحكم في هذه الأسرة إلى أن انقرض سنة ٧٣٨ للهجرة ، وخير ما يو صف عهدهم بقول احد الباحثين : فز مانهم زمان نزاع وتخاصم ، والملك لمن غلب، والحق للأقوى ، والفوضى تهيمن على مرافق دولتهم من كل جانب ، وادارتهم مفككة يعوزها النظام واتحاد الكلمة . وقد تجلت كل مظاهر هذا الضعف والفساد في حكومة العراق، فلم تكن لبغداد والبصرة والجزيرة حكومة متحدة تنتظمها جميعا، بل كان الحكام والأمراء يتحاسدون ويتباغضون ، ويتربص كل منهم بصاحبة الدوائر ، وإن اسرة حاكمة هذا شان افرادها واعوانهم لا يمكن أن تفتح طريقة إلى الخير ، ولا أن تأخذ بيد الرعية إلى المجد والفلاح.

او اعتلى منصة الحكم الشيخ حسن الكبير الإيلخاني امير بلاد الروم ، ولم يطل عهده كثيرة ، إذ استولى الجلائريون على البلاد ، وهم قوم من عنصر مغولى ايضا، وكان ذلك سنة ٧٤٠ للهجرة ، وعاد في هذا العهد إلى بغداد بعض رونقها ، فقامت العمائر ، وشيدت المدارس الكبيرة ، ومن اشهر أمرائها مرجان بن عبدالله الأولجاني . وكان من اهل الفضل ، شيد مدرسة كبيرة على غرار المدرسة النظامية الكبرى التي بناها الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن على ، وبنى دار الشفاء لتكون معهداً ومستشفى ، وبقيت الدولة الجادرية قائمة ال ان هجم عليها (تيمولنك).

اما في مصر فإن الأسرة الأيوبية التي حاربت الإفرنج وحررت أجزاء سورة من الديار الإسلامية ولاسيما القدس ، فقدت قوتها في ايامها الأخيرة ، سقطت سنة ٦٤٨ للهجرة بيد المماليك الذين امتد حكمهم إلى الشام والحجاز .

وكان أول حاكم لهم عز الدين أيبك الذي قتل غيلة بعد فترة وجيزة من حكمه ، وجاء قطز ، وهو رجل داهية ساس البلاد خير سياسة ، واستطاع تحطيم جيش التتر في الشام والانتصار

عليهم في (عين جالوت) بالقرب من نابلس بعد أن صاح بأعلى صوته (وإسلاماه) لإثارة حماسية جنده ، وكان هذا الانتصار رائعة ، لأنه مزق شمل التتر كل ممزق ، وسقط قائدهم كتبغا صريعا في المعركة ، ولم ينج منهم الا من لاذ بالفرار ، واستطاع المصريون ان يعدلوا إلى المسلمين ما استولى عليه التتر من البلاد الشامية ومن اعمال دمشقي وحلب . وقد تضاعف شكر المسلمين الله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر ، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ، ولا عسكرة إلا هزموه ، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم .

وقد آلت نهاية بطل تلك المعركة، الملك المظفر قطز ، بالموت قتيلا بيد رفيق سلاحه الظاهر بيبرس سنة ١٥٨ للهجرة في طريق عودته إلى الديار وتسلم بيبرس السلطة ، وأحسن إلى الرعية وشيد المدارس و المساجد، وكان قوية شجاعة استطاع تحطيم قوى الإفرنج في الساحل الشامي والاستيلاء على عدة معاقل لهم ولاسيما انطاكية ، وتوفي سنة ٦٧٦ للهجرة، واعتلى منصة الحكم ابنه محمد ، وكان فيه كثير من نزق الشباب وطيشه ،لو بلغ النطق جهد الشكر فيك فما عسى يقوم به ذو الشعر والخطب.

الحياة الاجتماعية :

ساءت الأوضاع الاجتماعية بعد زوال دولة بني العباس ، تلك الدولة العظيمة التي حكمت اكثر من خمسة قرون ، بلغت فيها الحضارة منزلة عالية او مكانة سامية ، وعاش الناس في ظلالها في منعة وحصانة ، آمنين على انفسهم وما ملكت ايديهم .

لقد استولى الغرباء على البلاد ، وقسموها بينهم إلى مقاطعات ، وتصرفوا في خيراتها، وقضوا على موارد الثروة فيها ، وتركوا السكان الأصليين في بؤس وشقاء ، وحرمان وازدراء. كما فسدت الأخلاق ، وكثر الدجالون الاشرار والمفسدون ولا سيما الذين كانوا يسمون أنفسهم الشطار ، فقد اعاثوا في البلاد فسادة ، وأبتروا اموال الناس ظلما وعدوانا ، وكم احرقوا البيوت والزروع ، ورجال الشرطة واهل الاحتساب لاهون ساهون، أو أنهم كانوا يخافون فلا يستطيعون ايقاف اعمالهم المربية أو الشائنة ، او الحيلولة دون جرائمهم الشيطانية الغربية .

وكثر في المجتمع الغش وفساد الضمائر، ولا ننسى في هذا المقام سوء الحالة الصحية وتفشي الأمراض وهجوم الطاعون والوباء بين حين وآخر وشاعت في هذه الحقبة اعمال السخرة في البناء وشق الطرق والترع، وازداد عدد الفقراء ، حتى غدت فئة كبيرة منهم تتعاطى السؤال وتستمرئه ولا تحيا إلا به .

وكان كثير من الولاة ظالمين قساة لا رحمة في قلوبهم ولا شفقة ، منهم على سبيل المثال : ارغون شاه (ت ٧٤٨) نائب حلب ثم دمشق ، فقد روى ابن الوردي انه كان في غاية السطوة

، مقدم على سفك الدم بلا تثبت ، قتل بحلب خلق ... وقطع بدوية سبيع قطع بمجرد الظن بحضرته ، و غضب على فرس له ... فضربه حتى سقط ، ثم قام فضربه حتى سقط ، وهكذا مرات ، حتى عجز عن القيام ، فبكى الحاضرون على هذا الفرس ، فقيل فيه :

عقلـــــت طرفـــــك حتـــــى اظهـــــرت للنـــــاس عقلـــــكْ
لا كـــــان دهـــــر يُـــــولّى علـــــى بنـــــي النـــــاس مثلـــــكْ.

إن الترف بلغ عند الكثيرين حدة بعيدة ولا سيما في المأكل والمشرب ، روي المؤرخون أن الأسياد قد رصدوا عصائب شعور نسائهم وثيابهن وخفافهن بالجواهر واللآليء، كما رصعوا آنية شرايم وطعامهم بالذهب والحجارة الكريمة ، و اتخذوا في مجالس اهو هم آنية و تماثيل ودمي من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة واللؤلؤ ، وليسوا الثياب المزخرفة ، وافترشوا الدمقس والحرير والديباج ، واستعملوا الات الشطرنج والنرد المصنوعة من الذهب او الفضة والأبنوس والعاج، ووجد في خزائن بعضهم من أصناف الثياب والحلي والرياش والأثاث ما يقدر بملايين الدنانير.

ومع هذا الثراء الوافر والنعيم الزاخر عند السلاطين والملوك والأعيان والتجار واصحاب الأرض فإن الطبقة الدنيا من الناس كانت تعيش في كد دائم للحصول على ما يسد الأود ، وكثيرا ما تنتابهم الأوبئة الفتاكة حتى إن الشيخ بدر الدين حسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) شبه الطاعون الذي يفتك بالناس ويحصد ارواحهم برجل ظلوم حسود في قوله :

إن هـــذا الطـــاعون يقتـــك فـــي العـــا لـــم فـــك امـــريء ظلـــوم حســـود
ويطـــوف الـــبلاد شـــرقا وغربـــا ويســـوق العبـــاد نحـــو اللحـــود

ومن المساويء التي شاعت عند فريق من الناس آنذاك تناول المسكرات ولا سيما الحشيشة التي قال عنها المقريزي : وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا زائدة ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرة، و تظاهروا بها من غير احتشام ، وقال ايضا : (وما شيء في الحقيقة أفسد الطباع البشر منها ، ولاشتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم تعين ذكر هاء وقد اضطر الملك الظاهر بيبر سن سنة ٦٦٥ للهجرة في القاهرة إلى اصدار مراسم بابطال تدخين الحشيش وشرب الخمور ، ومعاقبة المقبلين على المنكرات ، كما امر عماله أن يراقبوا احوال الناس والباعة ويراقبوا الموازين والمكاييل، وينظروا في أمر الأسعار ويتشددوا في مراقبتها) .

الحياة الثقافية :

ظلت الحركة الفكرية في ظل الدولة العباسية زاهية زاهرة حتى اواخر ايامها سواء أكان ذلك في العلم ام في الأدب ، وكان للشعراء مقام محمود عند الخلفاء ولا سيما الناصر لدين الله الذي احدث لهم ديوانا باسم «ديوان شعراء الخلاقة وخصص لهم رواتب معلومة. ولما نكت بغداد

بالغزو التتري، واجتاحت الجيوش المخيفة الديار ، وطوحت يد الردى مدن العراق ودارت عليها الدوائر، اصاب الناس عموما بلاء كبير وشر مستطير من تقتيل ونهب وإحراق ، وذهب ضحية هذا الهجوم كثير من العلماء الفضلاء والأدباء النبهاء امثال : الشيخ يحيى بن يوسف الصرصري الشاعر المشهور ، ومحيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي أستاذ دار الخلافة ، والإمام أبو المناقب محمود بن احمد بن محمود الزنجاني احد مدرسي المستنصرية ... واستعمل هولاكو بعض العلماء من كانوا يجيدون لغته او يتقنون علوم الفلسفة والرياضيات والطبيعة التي كانت تعجبه ، فأخذهم معه إلى عاصمة ملكه .

اما المدارس ودور العلم وخزائن الكتب وربط الصوفية فقد أصابها الذي كبير ، وأضحت لا تتجاوز اصابع اليد بعد أن كانت تتجاوز المئات ، ومن المدارس التي بقيت في تلك الحقية ولم يصبها تلف كبير وتؤدي واجبها في التدريس : النظامية الكبرى ، ومن علمائها المشهورين القاضي عز الدين محمد بن جعفر البصري (ت ٧٢هـ) ، قال صاحب الحوادث الجامعة : ((كان عالم فاضلا ولي تدريس النظامية بعد. واقعة بغداد ، ثم نقل إلى تدريس مدرسة الأصحاب ، ودرس بالمدرسة العصملية عند فتحها وناب في الحكم والقضاء بغداد)) ، والمدرعة المستنصرية التي اشتهرت بسمعتها الكبيرة في اجتذاب خيرة المدرسين مثل الامام نور الدين ابي طالب عبدالرحمن بن عمر بن ابي القاسم البصري ، الفقيه الضرير (ت ٦٨٤هـ) ، قال الصفدي : ((كان رحمه الله تعالى محققة للمسائل ، عارفا بالخلاف، صحيح النقل المذهبه ومذهب غيره، تام الأنس ، حسن العشرة والخلق ، ينبسط مع جلسائه بحسب احوالهم ، وكان لا يكاد يغلب في البحث و المجادلة والمعارضة)). وذكر له ابن رجب مجموعة من المصنفات . والمدرسة الموفقية التي دامت بعد الغزو المغولي مدة غير يسيرة ، ومن الذين درسوا فيها مظفر الدين ابو العباس احمد بن نورالدين علي بن تغلب المعروف بابن الساعاتي التغلبي البعلبكي (ت ٦٩٤هـ) ، قال ابن الفوطي : كان عالما بالفقه والأصول ، عارفة المنقول والمعقول ، مليح الخط ، صحيح الضبط ، فصيح اللسان ، حسن البيان ..... رتب سنة ٩٨٢ مدرسة بالمدرسة الموفقية ، وحضره الأكابر والأعيان» . والمدرسة البشيرية ومن مدرسيها الأخبار الفقيه نصير الدين احمد بن عبدالسلام بن تميم بن عكبر (ت ٨٧٣ هـ) ، قال الصفدي :

((كان فاضلا في الفقه والعربية ، وله مشاركة في العلوم ، وسمع الكثير ... وإجازاته عالية ، وله نظم و نثر ، و بيته معروف بالفضل ، اقعد قبل وفاته بسنين واضر ، والناس يترددون اليه ، ويشتغلون عليه ، وينتفعون بنا ويسمعون منه ، ويستجيزونه، ولم يزل حريصة على العلم والعبادة والاشغال إلى حين وفاته».. وثمة مدارس أخرى لا يتسع المقام لذكرها)) .

أما في مصر والشام ، فإن المماليك ساروا على الدرب الذي اختطه الأيوبيون من قبلهم في تشجيع العلم و تكريم اهله ، فأكثروا من المدارس، وقد بلغت نحو من سبعين مدرسة ومعهدا

للتدريس ومما يجدر ذكره هنا أن اللغة العربية وعلومها وآدابها كانت مزدهرة في العصر المملوكي ؛ لأن المماليك كانوا يتعلموها ويعلموها ابناءهم ومماليكهم ويشجعون على اتقانها ، والبراعة فيها وفي علومها وآدابها وألفت كثير من

اكتب رسم كثير من السلاطين ، وإن الكثرة ما بأيدينا من كتب الأدب عربي الآن، إن هي إلا ثمرة من ثمرات هذا العهد الميمون الذي لم تتعرض كتبه - تعرضت له كتب الشرق والغرب من حرق و اتلاف.

و جاء العثمانيون واحتلوا العراق والشام ومصر والحجاز اقتصر التعليم على فئة من الناس ، وفي المدن الكبيرة ، وظهر عدد من المؤلفين – وان لم يكونوا كثيرين - في علوم اللغة العربية وآدابها .

اما في ديار المغرب العربي فإن الثقافة بقيت مزدهرة فيها ، وكان لعلمائها وأدائها دور بارز في نقل الحضارة العربية إلى أوربا ، وقد ازدادت مكانة العلوم والمعارف رفعة وسموا فيها بعد نزوح العلماء والأدباء والفنانين والنقاد من الأندلس اليها، وظهر فيها مفكرون كبار مثل أبي الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤) الأديب الناقد البلاغي صاحب الكتاب المشهور «منهاج البلغاء او سراج الأدباء ، والمؤرخ المشهور عبدالرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)الشي ارتقى في كتابة التاريخ من السرد والقصص الساذج إلى درجة العلم المعلن ، وتعد مقدمته المشهورة فتحا جديدا في هذا الميدان لم يسبق اليه ولم ينج على منواله احد في العربية . واحمد بن محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) صاحب المؤلفات القيمة مثل ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض و روحية الأس العاشر الالماس في دكر من لقيته من اعلام مراكش و فاس و «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» . ومن شعرائها المجيدين ابو الفتح محمد بن عبد السلام المغربي (ت ٩٧٠ه) الذي استمر في اخريات حياته في دمشق بعد نزوحه من تونس، وتنقل هنا ابياتا له يتشوق فيها إلى دياره :

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني وعما بقلبي من لواعج نيراني
ولا تسألوا غير الصبا عن صبابتي وشدة اشواقي اليكم وأشجاني
تحية مشتاق إلى ذلك الحمى وسكانه والنازحين بأظعان
سقى الله هاتيك الديار وأهلها سحائب تحكي صوب مدمعي القاني

لقد اصاب ديار المغرب العربي بعد ذلك الإشراق ، أذى كبير ، وخبت جذوة المعارف والعلوم ، بعد صراع الأسر الحاكمة فيها ، ثم الاحتلال الأوربي .

اسم المحاضرة : المديح والرثاء في الأغراض الشعرية

المديح :

هو ابرز الموضوعات الشعرية واوسعها ، يعرض فيه الشعراء بكل قدراتهم الفنية مآثر الممدوحين ، وافعالهم النبيلة ، ومواقفهم الحميدة ، وقد يذكرون فيه شجاعتهم، وفروسيتهم ، وشدة بأسهم ، وقوة شكيمتهم ، إذا ما خاضوا حربا ، أو صدوا عدوان.

وقد جاء المديح في ضربين الأول : - وهو القليل - نابع من قرارة النفس ، يتصف بالصدق والإخلاص والود والتزاه والبعد عن الخضوع والخنوع . والآخر : - وهو الكثير - صادر من طرف اللسان يتسم بالكذب والمبالغة والتذلل وإراقة ماء الوجه والسؤال .

ويغلب على قصائد المديح التقليد ، ولا سيما في مقدماتها المستهلة بالغزل، او وصف الطيف ، او وصف الخمرة ، أو الطبيعة ، أو الشيب وبكاء الشباب، وقد تكون مستهلة بالحكمة ، و الشكوى من قسوة الحياة ...

والملاحظ في المقدمات الغزلية التي يتخلص منها الشاعر إلى المديح برود العاطفة، لأنها مصطنعة لا تنم على حب حقيقي صادق ، وان كان في بعضها شيء من اللطافة والرقة والعذوبة المتأتية من تمكن الشاعر بلغته الشفافة من إتيان شعر مستحب يستوقف السامع ويستأثره ويشده اليه مثل قول ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) في مقدمة قصيدة يمدح بها الوزير العالم الطبيب أمين الدولة أبا الحسن بن غزال بن أبي سعيد :

فؤادي في محبتهم أسير وأنى سار ركبهم أسيرُ
يحن إلى العذيب وساكنيه حنيناً قد تضمنه سعيرُ
ويهوى نسمة هبت سحيراً بها من طيب نشرهم عبيرُ
و إني قانع بعد التداني بطيف من خيالهم يزورُ

وبعد ابيات اخرى في وصف المحبوب الأهيف الذي دأب على الهجر والصدود يتخلص إلى المديح بعبارات مليئة بالثناء والإطراء :

وإن اشك الزمان فإن ذخري امين الدولة المولى الوزيرُ
كريم اريحي ذو أياد تعسم كما همى الجون المطيرُ
تسامي في سماء المجد حتى تأثر تحت اخمصه الأثيرُ
له أمر وعدل مستمر به في الخلق تعتدل الأمورُ

إن هذا الشعر - وإن لم يبغ ناظمها كسباً - لم يتخلص من المبالغة في اضفاء صفة العظمة على ممدوحه ، وقد تصعد هذه المبالغة إلى درجة توحي للقارئ انها غير صادقة وتفتقر إلى الجدة و الحياة والحركة ، ومثال على ذلك، قصيدة صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ) في مدح ملك مصر محمد بن قلاوون التي عارض فيها قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يقول في مطلعها :

بأبي ، الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا

وقصيدة صفي الدين الحلي أولها :

اسبان من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا
و جلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا

وبعد اربعة عشر بيتا من الغزل المصنوع ينتقل إلى الممدوح ويظهره في صورة فريدة ، وكأنها خيالية ؛ لكثرة ما فيها من نعوت بعيدة عن الواقع، منها قوله :

ترجى مواهبه ويُرهب بطشه مثل الزمان مسالمة ومحاربا
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة واذا سخا ملأ العيون مواهبا
كالليث يحمي غابه بزئيره طوراً و ينشب في القنيص مخالبا
كالسيف يبدي للنواظر منظراً طلقاً، ويمضي في الهياج مضاربا

ويندر أن نجد شاعر - وهو يخاطب ملكة - تخلص من نعوت التبجيل والتعظيم والتفخيم ، وكأن العطاء مرهون بمقدار ما يكيل من هذه النعوت و منوط بها ، من ذلك قول شهاب الدين أحمد بن إسماعيل الكوراني (ت ٨٩٤هـ) في مدح السلطان محمد بن مراد بن بايزيد بن عثمان صاحب القسطنطينية وفاتحها :

سلطاننا الباهر الباهي له شرف يسمو على البدر والجوزاء والنهبِ
محمد انت فخر القوم قاطبة سميت بدر السما من انجم العربِ
رياض مدحك ازهار مفتحة وصوت شعري لها كالبلبل الطربِ

لقد كانت المبالغة والإفراط في النعوت سمة عامة عند الشعراء آنذاك، حتى المشهورين منهم بالاستقامة والصلاح مثل شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني المعروف بالشاب الظريف (ت ٦٨٨ هـ)، فها هو ذا يقول من قصيدة في مدح فتح الدين محمد بن محيي الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء ومؤتمن المملكة بالديار المصرية في عهد المماليك :

يجود حتى يمل الناس انعمه وليس يدركه من بذلها ملُ
سادت وسارت بها الأفواه معلنة فقد غدت مثلا يغدو بها المثلُ

وكان الشعراء يشيدون بأريحية الممدوح ، وكثرة سخائه ، ووفرة عطائه ، ويشيرون - تلميحا او تصريحا - إلى حاجتهم إلى شيء من هؤلاء .

وقد يبلغ السؤال عند بعضهم إلى حد الاستجداء المفضوح الرخيص ، والتذلل المقيت ، مثل قول الشاعر محمد بن محمد بن احمد المنصوري (ت ٨٧٨ هـ) في البيتين الآتيين:

اريـــد منـــك الآن يـــا ســـيدي ثوبـــا مليحـــة ناصـــعة فـــي البيـــاضِ
فعبـــدك الآن غـــدا عاريـــاً مـــن كـــل شـــيء فـــاقض مـــا انـــت قـــاضِ

وحظي العلماء الفضلاء بنصيب كبير من المديح ؛ لأنهم . سادة الورى ونجوم الهدى كما يقول الشيخ نجم الدين الغزي (ت ١٠٩١هـ) صاحب الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة:

إنمـــا ســـادة الـــدوري النجبـــاءُ ونجـــوم الهـــدى هـــم العلمـــاءُ
ينقضـــي الـــدهر والمكـــارم مـــنهم ابـــد الـــدهر مـــا لهـــن انقضـــاءُ
كيـــف تعفـــو آثـــارهم وهـــي تبـــدي للأناســـي فضـــلها الأنبـــاءُ
فهـــم الـــدائمون معنـــى وإن مـــا تـــوا فـــوالله إنهـــم احيـــاءُ
كـــن عليمـــاً إن شـــئت او كـــن محبـــاً إنمـــا الحـــب لـــو فهمـــت ولاءُ

وقد تتناول قصائد المديح سير العلماء ومكانتهم في التصنيف ورجاحتهم في التدريس ، مثل قصيدة شهاب الدين احمد بن محمد المعروف بابن صالح (ت ٨٩١ هـ) في مدح شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب المؤلفات المفيدة يقول فيها :

إمـــام لأشـــتات البلاغـــة جـــامع يقـــاس بقـــس حـــين يرقـــي ويخطـــبُ
فقيـــه إذا رام الكتابـــة طالـــب يفـــيض اليـــه مـــن عطايـــاه مطلـــبُ
وقـــد حفـــظ الله الحـــديث بحفظـــه فـــلا ضـــائع إلا شـــذى منـــه طيـــبُ
ومـــا زال يملـــي الطـــرس مـــن بحـــر صـــدره لآلـــيء إذ يملـــي علينـــا ونكتـــبُ

واستطاب بعض الشعراء أن تكون مدائحهم على شكل موشحات ، ذات جرس موسيقي لطيف ، وايقاع محبب على السمع خفيف ، مثل موشحة شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري (ت ٦٧٥هـ) في مدح الأديب الشاعر شهاب الدين احمد بن عبدالملك العزازي (ت ٧١٠ هـ) ، وقد بدأها بغزل عفيف ظريف، ثم تخلص إلى المديح ، بلغة واضحة ، وأسلوب سهل ، ونذكرها هنا كاملة لجمال مبناها وطرافة معناها :

لـــيس يـــروي مـــا بقلبـــي مـــن ظمـــا غيـــر بـــرق لائـــح مـــن إضـــمِ

إن تبدى لك بان الأجرع

وأثيلات النقا من لعلع

يا خليلي قف على الدار معي

وتأمل كم بها من مصرع

واحتـــرز واحـــذر فأحـــداق الـــدمى كـــم اراقـــت فـــي باهـــا مـــن دمِ

حظ قلبي في الغرام الوله

فعذولي فيه ما لي وله

حسبي الليل فما اطوله

السم يزل آخره أوله

فـــي هـــوى اهيـــف معســـول اللمـــى ريقـــه كســـم قـــد شـــفي مـــن الـــمِ
سائلي عن احمد مما حوى

من خلال هسي للسداء دوا

مما سواه وهو صاح سوى

ناشر من كل فن مما انطوى

بحـــر آداب و فضـــل قـــد طمـــا فـــاخش مســـن تيـــاره الملـــتطم
العزازي الشهاب الثاقب

شكره فرض علينا واجب

فهو إذ تبلوه نعم الصاحب

سهمه في كل فن صائب

جائـــل فـــي حليـــة الفضـــل كمـــا جـــال فـــي يـــوم الـــوغى شـــهم كمـــي
شاعر ابدع في أشعاره

ومتنسى انكرت قولي باره

لو جرى مهيار في مضماره

والخوارزمي في آثاره

قلـــت عـــودا وارجعـــا مـــن انتمـــا ذا امـــرؤ القـــيس اليـــه ينتمـــي

الرثاء :

فن ادبي وجداني ، يعبر عن حزن الإنسان وتأسفه على فقيده ووصف رزئه وفجيعته به ، وهو - على كثرته - ليس بذلك الدفق و العمق الذي كنا نلمسه عند شعرائنا في العصور الزاهية

السابقة ، ولا نجد فيه - الا ما ندر - تلك الفلسفية التي رأيناها في قصيدة ابي العلاء المعري المشهورة (غير مُجد في ملتي واعتقادي)..

وقبل النظر في رثاء الأحباب والأصحاب ، و المقربين من الأنساب ، وأخبار الناس، نقف عند رثاء المدن الزائلة و بكاء الدول البائدة التي توالت عليها النكبات والفجائع والمصائب، وذهب ضحيتها الآلاف ... وقد أخذت تعداد - مهد العلم والأدب ودرة الحضارة - من هذا الرثاء والبكاء قسطاً واقرأ ، فهذا شمس الدين محمد بن احمد الكوفي (ت ٦٧٥ هـ) يبكي عليها بكاء حارة ويرثيها بعدة قصائد تعبر عن صدق المعاناة تجاه هذه المدينة التي ضربتها ايدي التتر سنة ٦٥٦ للهجرة واحالتها إلى خرائب يباب ، ففي احدى هذه القصائد يذكر في مطلعها أصحابه واصدقاءه الذين ودعهم إلى غير رجعة ، وتمنى الموت بعدهم :

إن لـــم تقـــرِحّ ادمعـــي اجفـــاني مـــن بعـــد بعـــدهم فمـــا اجفـــاني
إنســـان عينـــي مـــذ تنـــاءت داركـــم مـــا راقـــة نظـــر إلـــى إنســـان
يـــا ليتنـــي قـــدمت قبـــل فـــراقكم ولســـاعة التوديـــع لا احيـــاني
مـــا لـــي و للأيـــام شـــتت صـــرفها حـــالي ، وخلانـــي بـــلا خـــلان

ويتعجب الشاعر - بعد تطوافه ببغداد - من تبدل الوجوه ، وغياب الأهل والجيران ، و ما حل بها ، بعدما جالت فيها معاول الهدم وألسنة النيران :

مـــا للمنـــازل اصـــبحت لا أهلهـــا اهلـــي ولا جيرانهـــا جيرانـــي
وحيـــاتكم : مـــا حلتهـــا مـــن بعـــدكم غيـــر البلـــى والهـــدم والنيـــران

ويقف مذهولا امام الدار الخربة - وهي ليست وقفة الشعراء على اطلال محبوباتهم الطاعنات - ويسألها عما أصابها ، وما نالها ودهاها ، وكيف تحولت إلى هذه الحالة المؤلمة بعد عز ورخاء، وشموخ وإباء، و قوة و بأساء:

ولقـــد قصـــدت الـــدار بعـــد رحـــيلكم ووقفـــت فيهـــا وقفـــة الحيـــران
وســـألتها، لكـــن بغيـــر تكلـــم فتكلمـــت ، لكـــن بغيـــر لســـان |
ناديتهمـــا : يـــا دار مـــا صـــنع الألـــى كـــانوا هـــم الأوطـــار فـــي الأوطـــان
أيـــن الـــذين عهـــدتهم، ولعـــزهم ذلا تخـــر معاقـــد التيجـــان ؟
كـــانوا نجـــوم مـــن اهتـــدى فعلـــيهم يبكـــي الهـــدى وشـــعائر الإيمـــان

وترد الدار على سؤاله بجواب لطيف فيه عظة وعبرة وتأس وسلوة : إن أهوال الدهر وحوادثه أفنتهم مثلما أفنت صاحب الإيوان :

قالـــت : غـــدوا لمـــا تبـــدد شـــملهم وتبـــدلوا مـــن عـــزهم بهـــوان
أفنـــتهم غيـــر الحـــوادث مثلمـــا أفنـــت قديمـــة صـــاحب الإيـــوان

ولم ينصل الشاعر حديثه عن طبيعة الخراب والدمار ، وانما انشغل بوصف حزنه على فراق أحبابه، وألمه الذي أصابه بعد رحيلهم ، ولم يستطع أن يتخلص - وهو في موقف الأسى والأسف- من الصنعة اللفظية والمعنوية ، والاتكاء عليها ، ولاسيما استخدام الجناس والطباق ورد الصدر على العجز .

لقد كانت النكبة التي حلت ببغداد عظيمة، والفاجعة التي داهمتها كبيرة، والمصيبة التي وقعت على قاطنيها رهيبة أذهلت الكثيرين من الشعراء وأنطقتهم قصائد رثائية مبكية، وقد قدر لشاعر آخر أسمه تقي الدين أسماعيل بن أبي اليسر التنوخي مسند الشام (ت ٦٧٢ هـ) أن يكون في عداد الذين شهدوا النكبة و عانوا من أهوالها ، فبكاها بقصيدة طويلة ، مطلعها:

السائل الدمع عن بغداد إخبار فما وقوفك ، والأحباب قد ساروا؟

ولسعدي الشيرازي (ت ٦٩١ هـ) قصيدة جيدة في بضعة وتسعين بيتا باللغة العربية رثى بها الخليفة المستعصم بالله ، وبكي بدموع ساخنة على بغداد حاضرة العالم الإسلامي آنذاك، أولها:

حبست بجفني المدامع لا تجري فلما طغي الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند أولي النهى أحب له من عيش منقبض الصدر

إن ما قيل في رثاء بغداد كثير، وقد ألف ابو الخير سعيد بن عبد الله الدهلي (ت ٧٤٩ هـ) كتاب بعنوان (تفتيت الأكباد في واقعة بغداد).

ولم تكن بغداد المدينة الوحيدة التي ابتليت بهذه النكبة او المصيبة ، بل شاركتها مدن إسلامية أخرى في ديار الشام والمغرب العربي والأندلس، فهذا ملك حلب ثم دمشقي الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد - وكان شاعرا اديبا - يؤخذ سنة ٦٥٩ للهجرة اسيرا بيد التر مع جمع من اقاربه ورجاله وتضرب اعناقهم بالسيوف غدرة ، وقد قال الأبيات الآتية حينما رأى حلب، وهي خاوية على عروشها ، وألسنة النيران تعمل في بيوتها المهدمة :

ناشدتك الله يا هطالة السحب إلا حملت تحياتي إلى حلب
لا عذر للشوق أن يمشي على قدر ماذا عسى يبلغ المشتاق في الكتب

ثم بكى طويلا ، وقال :

يعز علينا أن نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى
اقلب طرفي نحوكم في دياركم فأكثر فيها النوح كالنائح الثكلى
لقد مر لي فيها أفانين لذة فما كان اهنا العيش فيها وما احلى

و بقيت آثار النكبة التي ابتلى بها المسلمون عامة ، والعرب خاصة ، ماثلة للعيان إلى زمن طويل ، ولعل الشاعر علاء الدين علي الأوتاري (ت ٧٢٤هـ) من اكثر الشعراء تأثرة بتلك النكبة ، إذ نجد له قصيدة طويلة يبكي فيها على قومه الذين وقعوا صرعى بعدما شاهد الخراب والدمار الذين خلفه التتر في دمشق:

لـــك علـــم بمـــا جـــرى يـــا ســـهادي مـــن جفـــوني علـــى افتقـــاد رقـــادي
وحبيـــب العـــين، الســـرقاد جفاهـــا مـــذ رآهـــا خليقـــة الأنكـــادِ

والقصيدة برمتها تنم على حزن عميق ، وهي تنقل لنا صورة مؤلمة ومثيرة أولئك الناس الآمنين الذين دهاهم القتل والنهب والسلب والهتك ، والدور والقصور والمدارس والمساجد التي أصابها الهدم والحرق :

طـــرقتهم حـــوادث الـــدهر بالقتـــ ل ونهـــــب الأمـــــوال والأولادِ
وبنـــات محجبـــات عـــن الشـــم س تنـــاءت بهـــن ايـــدي الأعـــادي
وقصـــور مشـــيدات تقضـــت فـــي ذراهـــا الأيـــام الأعيـــادِ
وبيـــوت فيهـــا الـــتلاوة والذكـــ ر وعـــالي الحـــديث بالإســـنادِ

وهكذا بقيت الصورة المؤثرة والمثيرة عالقة في الأذهان ، تثير بين الحين والآخر الأشجان والأحزان ، وعلى مر العصور والأزمان ، تهز الشعراء كلما تذكروها وقرأوا حوادها ووقائعها.

واذا انتقلنا إلى الألوان الأخرى في فن الرثاء ، نرى رثاء العلماء والأدباء، والبكاء على رحيلهم ، والتأسف على غيابهم ، يأخذ نصيبة كبيرة من شعر الشعراء ، وهذا دليل واضح على اهتمام الناس آنذاك ، ولا سيما الدارسين، بالعلوم والآداب ، وتعظيم القائمين عليها ، وتبجيل المنتسبين اليها ، فهذا مثلا أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) المشهور في النحو والتصريف والتفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وتواريخهم ، والمعروف بنظم الشعر الجيد ، يقف الشعراء إجلالا له منشدين قصائدهم في رثائه ، منهم تلميذه الوفي خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤ هـ)في قصيدته التي يقول في مطلعها:

مـــات أثيـــر الـــدين شـــيخ الـــورى فاســـــتعر البـــــارق واســـــتعبرا

وهي طويلة ، تناول فيها منزلة هذا العالم الأديب ، وخسارة الأمة بفقده وأشار إلى عدد من مؤلفاته القيمة في صنوف المعرفة المختلفة وفائدتها الكبيرة في التعليم ، منها قوله :

تفســـير (البحـــر المحـــيط) الـــذي يهـــــدي إلـــــى وارده الجـــــوهرا
فوائـــد مـــن فضـــله جمـــة عليـــه فيهـــا نعقـــد الخنصـــرا
وكـــان ثبـــت نقلـــه حجـــة مثـــل ضـــياء الصـــبح إذ أســـفرا
ورحلـــة فـــي ســـنة المصـــطفى أصـــدق مـــن يســـمع إن خبَّـــرا

ولم تكن منازل العلماء الأعلام أدنى من منازل الحاكمين من ملوك وأمراء بل كانت تفوقها ، وتعلو عليها ، لأنهم رموز بارزة، لهم خدمة جليلة في تنوير العقول ، وتهذيب النفوس ، وتقويم المناد الفاسد من العادات والتقاليد ولذلك لا نمر بديوان شاعر إلا نجد فيه مراثى لهؤلاء العلماء ، ففي ديوان ابن نباتة المصري مثلا تسع قصائد رثائية واحدة منها في العالم البلاغي الناقد شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧٢٠ هـ) ، وفي ديوان ابن الوردي خمس قصائد رثائية واحدة منها في العالم المجاهد الفقيه تقي الدين احمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ... وهكذا لو تتبعنا الدواوين وأحصينا ما فيها من مراث إلى جانب المجاميع الشعرية وكتب التراجم، لتشكل لدينا سفر كبير يندر أن نجد مثله في العصور السابقة .

ولم يكن حظ الملوك كثيرة من مراثي الشعراء اذا ما قيس بمراثي العلماء ويعد الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب ، حماة من أكثر الملوك الذين يرثوا بقصائد تطفح بالحزن والأسى ، ويمكن أن نضيفه الى العلماء النابهين، إذ كان بارعة في الأدب والتاريخ والفقه والتفسير و المنطق والفلسفة، وقد وصلت إلينا مجموعة طيبة من شعره إلى جانب كتابيه «تقويم البلدان» و «المختصر في أخبار البشر ». وكان ابن نباتة المصري من أخلص شعرائه واكثرهم مدحة له ، وأوفاهم بعد وفاته ، كما يلاحظ في قصيدته الطويلة التي بكاه فيها بدموع فياضة ، وأولها:

مـــا للنـــدى لا يلبـــي صـــوت داعيـــهِ أظـــن أن ابـــن شـــاد قـــام ناعيـــه
مـــا للرجـــال قـــد اشـــتدت مذاهبـــه مـــا للزمـــان قـــد اســـودت نواحيـــه
مـــا لـــي أرى الملـــك قـــد قضـــت مواقفـــه مـــا لـــي أرى الوفـــد قـــد فاضـــت مآقيـــه

ويطيل في سرد مآثره وخدماته الجليلة ، ثم يخلد في خاتمتها إلى الحكمة والموعظة الحسنة ، ويذكر أيوب وصبره الجميل بهذا الملك الفاضل من آل أيوب :

يـــا آل أيـــوب صـــبرة : إن إرثكـــم مـــن اســـم أيـــوب صـــبر كـــان ينجيـــهِ
هـــي المنايـــا علـــى الأقـــوام دائـــرة كـــل ســـياتيه منهـــا دو ســـاقيهِ

ويلقانا شعر كثير في هذه الحقبة في رثاء الأبناء والإخوان والزوجات، وهو يفيض حزنا و يطفح ألم وحسرة ، لأنه يعبر عن قلوب مكدومة ونفوس مهدومة ، فهذا - مثلا - أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) يرثي ابنته نضار) العالمة الزاهدة الشاعرة ، بشعر كثير ، جمعه في جزء سماه (النضار في المسلاة عن نضار) ورد منه في ديوانه اثنتا عشرة قصيدة ، وهذه الكثرة تذكرنا بمراثي الشاعر المشهور أبي بكر الصنوبري في ابنته ليلى) .

لقد كانت فقيدة أبي حيان الأندلسي كما يقول :

و نضـــار كانـــت أنيســـي وحبـــي ونضـــار كانـــت حيـــاتي وروحـــي

ولحقت زوجته زمردة بابنتها نضار فبكاها كما بكى ابنته ، ورثاها أحر الرثاء ، مثل قوله وهو يرثي ابنته في قصيدة أولها:

مـــا لقلبـــي مقســـم الأفكـــارِ وكـــأن قـــد حشـــي بجمـــرة نـــار
قـــد دهتنـــي مـــن الزمـــان خطـــوب ضـــاق عـــن حملهـــا جميـــل اصـــطباري

ومنها :

كانـــت أنســـي فـــي وحـــدتي واغترابـــي ومنـــامي ويقظتـــي وســـفاري
ونـــديمي فـــي رحلتـــي ومقـــامي وزميلـــي فـــي حجتـــي واعتمـــاري
كنـــت أرجـــو أن تعـــيش وتبقـــى حـــين ســـقمي تـــدور بـــي وتـــداري
لـــم تكـــن زوجـــة ولكـــن كـــأم وأنـــا كابنهـــا صـــغير الصـــغار

ولنسمع إلى ابن الوردي في الأبيات الآتية من قصيدة ، وهو يصور معاناة ابنته من داء عضال ، كان يؤلمها أشد الألم ويؤذيها ويقض مضجعها قبل أن تفيض روحها إلى بارئها :

فلـــذة الكبـــد التـــي لـــم نـــأت نثـــرت منظـــوم " دمعـــي دررا
كنـــت أبكـــي مـــن تشـــكيها فمـــذ بعـــدت صـــار بكـــائي أكثـــرا
فجـــرى مـــن دمـــع عينـــي مـــا كفـــى وكفـــي مـــن روع بينـــي مـــا جـــرى

ومن شعر النساء في هذا المجال المحزن قول بوران بنت محمد بن الشحنة (ت ٩٣٨هـ) في رثاء أخيها محب الدين:

دعـــوا دمعـــي بيـــوم البـــين يجـــري فقـــد ذهـــب الأســـى بجميـــل صـــبري
وكيـــف تصـــبري وأخـــي رهـــين بـــأرض الشـــام فـــي ظلمـــات قبـــر

ونال الحيوان الأليف جزءا من مراثي الشعراء، لاسيما ذلك الحيوان الذي يتكئ عليه الانسان في قضاء حاجاته وتسيير أعماله ، مثل شمس الدين محمد ابن دانيال الموصلي (ت ٧١٠هـ) الذي رثي بقصيدتين إكديشه الذي مات بعد أن هزل وبلغ من العمر عتيا وأصبح عاجزة عن العمل ، يقول في مطلع احداهما:

ياعين جودي بدمع منك منسجم وابكي علـــى فقـــد اكـــديش لنـــا هـــرمِ

ومنها :

قـــد كـــان عـــوني علـــى ضـــعف بـــه زمنـــاً حتـــى غـــدا زمينـــة بالويـــل ثـــم عمـــي
فبـــتُ أبكـــي لأيـــام لنـــا ســـلفت لحفـــظ عهـــدي ومـــا بالعهـــد مـــن قـــدمِ
و الرفيـــق ليبكـــي للرفيـــق وقـــد قـــالوا : المعـــارف بـــين النـــاس كالـــذممِ

اسم المحاضرة : الغزل والوصف في الأغراض الشعرية التقليدية.

الغزل:

الغزل فن ادبي جميل له صلة وثيقة بحياة الرجل والمرأة ، وهو يطالعنا بكثرة في شعر الحقبة التي ندرسها ، و قد افرد له الشعراء قصائد ومقطوعات و استهلوا به النظم في فنونه المختلفة ، ومما يلفت النظر أن جانبا منه لم يأت عن معاناة صادقة ، وإنما جاء تظرفة وملاحة ، فها هو ذا ابن الوردي مثلا - ينظم مئة مقطوعة في الغزل بالمذكر ، ويصرح في واحدة منها انه قالها مجاراة لذوق عصره:

والله ما المرد مرادي وإن نظمت فيهم كعقود الجمان لكن من رام نفاق الذي يقوله ينظم خرج الزمان ثم يورد مئة مقطوعة في مئة جارية سماها «الكواكب السارية في مئة جارية»، قال في مقدمتها : «أما بعد حمد لله وشكره ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وحزب نصره ، فقد شفعت الكلام ، على مئة غلام ، بالكواكب السارية ، في مئة جارية ، ونظمتها في احسن سلك ، وقلت للمعترض هذه بتلك ، وبالله التوفيق والاعتصام ، ومن هنا شرعت في الكلام» ، منها قوله في مليحة اسمها مي :

قلت لميّ أنا في حبكم ميت فدتك النفس من مي
ترين ماذا في، قالت: أرى أن (يخرج الميت من الحي)

وقال في مليحة ، على الأنف المعنى:

قالت : حكى لي شخص ما قلت ، قلت : كذوب
قالت : فذلك عدل في النقل ، قلت : أتوب

إنَّ هذا الشعر البارد - كما يبدو - قاله ليتحلى بلفظه ويزين به ديوانه ، فهو مصنوع من غير قلب يخفق ، او جنان يحس ؛ ولذلك لا ينجذب اليه القارىء ولا يردده كما يردد الشعر الغزلي الممتع الصادر من نفوس هائمة في محراب الجمال عشقاً ووجداً ... وكانت قدرة بعض الشعراء عالية في نظم الغزل المصنوع ، بلغة رقيقة مستملحة ، من ذلك الأبيات الآتية للشيخ قطب الدين محمد بن علاء الدين احمد النهرواني (ت ٩٩١هـ):

أقبل كالغصن حين يهتزْ في حلل دون لطفها الخزْ
مهفهف القد ذو محيا بعارض الخد قد تطرزْ
دار بخديه واو صدغ والصاد من لحظه تلوزْ
الخمر والجمر من لماه وخده ظاهر ومُلغزْ

ولما سمع الشاعر محمد بن إبراهيم المعروف بابن الحنبلي (ت ٩٧١هـ) هذه الأبيات استحسنها وعارضها بقصيدة ، ولكنها فاترة لا يخفى ما فيها من التكلف على من له أدني ذوق ، ومطلعها:

مـــا الفتـــى للجمـــال أبـــرز قـــد فـــتن العـــالم المحيـــزْ

وعلق عليها الشيخ نجم الدين الغزي صاحب كتاب الكواكب السائرة :(قد تحمل ابن الحنبلي في معارضته قطب الدين ما لا يطاق ، وجاء فيه من التكلف بما لا يخفى على ذوي الأذواق ، فسبحان من قسم العقول بين عباده والأخلاق والأرزاق ، ولما وقفت على ابياته عن لي ان انتصر لقطب الدين وأعارضه معارضة ، ولعل الدهر دول تتداول بين الناس ومقارضة) ، وقصيدة الغزي اولها :

ســـبحان مـــن للوجـــود ابـــرز رشـــا بحكـــم الهـــوى تعـــززْ
زاد علـــى الـــرئم فـــي دلال وعـــن جميـــع المهـــا تميـــزْ

وهكذا نظم هؤلاء الشعراء الثلاثة قصائدهم الزائية في بحر قصير الوزن و قافية موسيقية تصلح للإنشاد والغناء دون أن يكون هناك محبوب حقيقي اضناهم حبه واسقمهم هواه.

ومثل هذا الغزل كثير جدا ، يعود فيه الضمير على المذكر ، ويبدو أن احتجاب المرأة وحجرها في دارها ، وعدم السماح لها بمخالطة الرجال ومجالستهم حتى المقربين منها منع الشعراء من التغزل بها صراحة، تحفظاً لسمعتها ، وخشية من اهلها.

ولا يخفى على القارئ أن فريقا من الشعراء ، اقول فريقا ؛ لأنني لا ابرئ الجميع ، خاطب المذكر واراد به المؤنث ، فوصفوا الغلام في اعضائه كما توصف المرأة في قدها وخدها وخصرها وردفها وثناياها وشعرها وجيدها وعينيها ، حتى في غنجها ودلالها ، ووصفوا الوجد والهيام والترصد واللحاق كما وصفها المتيمون في حب النساء ، و لكنهم لم ينحدروا إلى المعاني المبتذلة التي نجدها عند ابي نواس ، ومطيع بن إياس ، وابن سكرة الهاشمي ... فهذا ابن نجا الضرير الإربلي (ت ٦٦٠هـ) يبث شكواه من الحبيب الذي اصم أذنيه وكأنه لا يسمع بعد أن وقع اسير سجنه الذي لا يبرح عنه ، فالبغض سجيته ، والقسوة طبيعته ، وقد نفد صبره ، وتزاحم وجده:

تـــــذللت لـــــو أن التـــــذلل ينفـــــعُ وافرطـــت فـــي الشـــكوى لـــو انـــك تســـمعُ
وامســـى خضـــوعي للحبيـــب ســـجيتي وهـــل نـــافعي للحـــب انـــي اخضـــعُ؟
ومـــن عجـــب انـــي بحبـــك مولـــع وانـــت بغضـــي والقطيعـــة مولـــعُ
نصـــيبك منـــي الحـــب والوصـــل كلـــه ومنـــك نصـــيبي الـــبغض والهجـــر أجمـــعُ

وكثيرا ما نجد معاني الشعراء وصورهم مكررة و متداولة ؛ أي لا اصالة فيها ولا ابداع ، من ذلك مثلا قول حسن بن محمد البوريني (ت ١٠٢٤هـ):

أحول وجهي حين يقبل عامداً مخافة واش . بينا ورقيب
وفي باطني - والله يعلم – اعين تلاحظه في أضلع وقلوب

وهذا ما نجده في قول ابي عبادة البحتري:

اجنو عليك وفي فؤادي لوعة واصد عنك ووجه ودي مقبلُ

ولم يكتف الشعراء في هذا العصر بالالتفات إلى معاني الشعراء القدامى الكبار والاتكاء على صورهم واخيلتهم، بل راحوا يعارضون قصائدهم المشهورة او يخمسونها ، مثل قصيدة الشريف الرضي الكافية المشهورة التي يقول في مطلعها:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

وقد احسن في معارضتها ابو اسحاق مخلص الدين ابراهيم بن محمد بن هبة الله الخزاعي (ت ٦٧١هـ) ، فقال في مقدمة قصيدته:

يا جنة الطرف نار القلب مأواك وما توقدها من برد ذكراكِ
ويا مهاة الدمي كل الدماء لكم حل ، فمن بحرام الفتك افتاك حاشاكِ
يا ظبية الأنس التي افترست اسد العرين من التأثيم حاشاكِ

ويطيل ، بحسن بيان وجودة عرض ، في وصف معاناة فؤاده المعذب بهوى حسنائه الرشيقة في قدها الوسيمة في جيدها ومحياها ، ثم يستعطفها أن ترأف به وتأخذ بيد المصافاة بدلا من المجافاة :

فعطفه يا مناه وارحميه فمن يمته طرفك لا يحييه إلاكِ
وواصليه فقد أودى الصدود به وعامليه بلا مطل بحسناكِ
فالله يشكر مسعاك لديه غداً إذا شكرت مساعي الواله الباكي

وثمة معارضة أخرى لطيفة لابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ) سنذكرها في ترجمته. ونكتفي هنا بمطلعها:

طربت عند سماعي وصف مغناكِ فكيف لو كان هذا عند مغناكِ

وشاعت آنذاك المخمسات الغزلية وكثرت، وهي في الغالب تعتمد على شعر الشعراء المشهورين السابقين ، وقد أحسن بعضهم وأجاد في نظمها بناء و معنى ، من ذلك مثلا مخمسة

جلال الدين محمد بن عمر (ت ٩١٦هـ) الأبيات مشهورة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين سليمان:

غبتم فطر في من الأجفان ما غمضا ولم أجد عنكم لي في الهوى عوضا
فيا عذولا بفرط اللوم قد نهضا للعاشقين بأحكام الغرام رضا
فلا تكن يا فتي بالعذل معترضا
إن الوفي بعهد ليس ينتقض وإن همو نقضوا عهدي وإن رفضوا
فقلت لما بقتلي بالأسى فرضوا روحي الفداء لأحبابي وإن نقضوا
عهد الوفي الذي للعهد ما نقضا

الوصف :

الوصف ركن أساس من أركان الشعر العربي ، وقد أصاب ابن رشيق القيرواني في قوله : (الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف)، فإننا نجده في شعر المديح والرثاء والهجاء والغزل ... إلى جانب الشعر الخالص في الوصف.

وقد ألم الشعراء في الوصف بكل شيء وقعت أعينهم عليه في دورهم وقصورهم من حاجات .. وفي مدنهم وقراهم من بساتين وأزهار وثمار وأطيار وأنهار .. وفي سمائهم من كواكب وسحب وأمطار .. وفي ديارهم من حيوانات أليفة وكاسرة ، وحشرات مضرة ونافعة ... - و تفاوت الشعراء كثرة وقلة في الوصف ، وقد بلغ مجير الدين ابن تميم (ت ٦٨٢ هـ) القمة في كثرة والنوعية . فإنه كان عاشقا لكل جميل في الطبيعة أيما عشق ، وكثيرا ما كان يتردد مع أصحابه على الرياض والمنازه والمياه الجارية .. وقد وصلت إلينا عشرات المقطوعات من نظمه يمكن أن نطلق عليها (الزهريات)، مثل قوله في النيلوفر:

ونيلوفر كالزهر شكلا ومنظراً محاسنه فيها اللواحظ ترتعُ
وكل نجوم لكن الفرق أنها تغيب صباحا وهي في الصبح تطلعُ

إنه امتزج بمشاعره وأحاسيسه مع الزهور والرياحين ذات الألوان البهية والروائح الشذية ، ووقف أمامها يتأملها بنظراته ، ويتحدث معها حديثة رقيقة عذبة شبيهة بحديث المولهين بمعشوقاتهم:

كيف السبيل للثم من احببته في روضة للزهر فيها معركُ
مابين منثور وناظر نرجس مع اقحوان وصفه لا يدركُ

هـــذا يشـــير بإصـــبع وعيـــون ذا ترنـــو اليـــه وثغـــر هـــذا يضـــحكُ

ومن مداعباته اللطيفة مع غصن البان والنرجس:

تفـــــتش غصـــــن البـــــان أذنابـــــه ومـــاس عنـــد الصـــبح زهـــوا وفـــاحْ
وقـــال : هـــل فـــي الـــروض مثلـــي وقـــد تعـــزى إلـــى مثلـــي قـــدود المـــلاحْ

وله في مشاهد الطبيعة مقطوعات كثيرة تصف الجداول والبرك والنافورات والدواليب ، نكتفي منها بهذين البيتين:

تأمـــل إلـــى الـــدولاب والنهـــر إذ جـــرى ودمعهمـــا بـــين الريـــاض غزيـــرُ
كـــأن نســـيم الـــروض قـــد ضـــاع منهمـــا فأصـــبح ذا يجـــري وذاك يـــدورُ

ويذكرنا مجير الدين بن تميم في هذين البيتين بقصائد ومقطوعات قيلت في النواعير التي شاع استخدامها آنذاك على الأنهار لسقي الزروع ، ولا سيما في حماة ، منها قصيدة نور الدين علي بن محمد العسيلي (ت ٩٩٤هـ) المؤثرة الرائعة التي بناها على غرار القصص القصيرة التي تنتهي بعبر نافعة ومواعظ بليغة :

ودولاب مـــررت بـــه ســـحيراً يـــئن كأنـــه الصـــب المـــروعِ
غـــدت أضـــلاعه تنعـــد ســـقماً ويفنـــي جســـمه صـــب الـــدموعِ
يبـــدو كمـــن أضـــل الإلـــف منـــه وذاق تشـــتت الشـــمل الجميـــعِ
فقلـــت لـــه : فـــديتك مـــن كئيـــب كســـاه الهـــم أثـــواب الخشـــوعِ

لقد اشتملت القصيدة على معان لطيفة في صورة جذابة مرسومة بقلم دقيق و فكر عميق ، تستجذب من يتأملها وتستوقف من يتأنى في استكناه مرادها «صورة عاشق ولهان ، يتألم ويتوجع ويتأوه من ألم العشق وشدة الوجد ، وعنف الغرام ، حتى اعتل" وساءت صحته ونحل جسمه ، فظهرت ضلوعه بحيث يمكن رؤيتها ، ويسهل عدها ، وكاد جسده يفنى من غزارة الدموع التي يسكبها ، و من الحزن الذي ألم به، وهو لا ينقطع عن الدوران كأنه يبحث عن حبيب فقده ، ثم وقف الشاعر أمامه يسأله عن سبب بكائه الدائم ونواحه وعويله ، وقال : إن أنين الدولاب الحزين قد قرب إليه حزنا كان بعيدا عنه ، وأعاد إلى ذهنه ذكريات أليمه كان قد نسيها ، وبذلك سبب له أرقة مستمرة ، وطرد النوم عن عينيه .

ومن الشعراء الذين هاموا بجمال الطبيعة ، ومتنزهاتها عبدالرحمن بن محمد الملقب بابن النقيب (ت ١٠٨١هـ) مثل قوله في الرياض البهجة ، مستخدما تشبيهات متوالية لتقريب صورها من القارئ :

وريـــاض مختالـــة مـــن ثراهـــا فـــي بـــرود مـــن زهرهـــا
وكـــأن الغصـــون فيهـــا عـــذارى تتبـــارى زهـــوة بحســـن

و من مستجدات هذا العصر وصف القهوة بشكل ملفت للنظر، وقد قيل إن أول من اهتدى إليها العالم الزاهد المتصوف أبو بكر بن عبدالله المعروف بالعيد روسي (ت ٩١٤هـ) ، قال الشيخ نجم الدين الغري : ((وهو مبتكر القهوة المتخذة من البن من اليمن ، وكان أصل اتخاذه لها أنه مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين ، فاقتات من ثمره حين رآه متروكة مع كثرته فاتخذه قوت و طعام وشرابا ، وأرشد أتباعه إلى ذلك ، ثم انتشر في اليمن ثم بلاد الحجاز ، ثم الشام ومصر ، ثم سائر البلاد ، واختلف العلماء في أوائل القرن العاشر في القهوة وفي أمرها حتى ذهب إلى تحريمها جماعة ترجح عندهم أنها مضرة .. والاكثرون ذهبوا إلى أنها مباحة)) لأنها ليست مسكرة ولا مضرة ونظموا القصائد والمقطوعات في مدحها والإشادة بمزاياها ومن هؤلاء إبراهيم بن المبلط في قوله:

يـــا عائبـــاً لشـــراب قهوتنـــا التـــي تشـــفي شـــفاء الـــنفس مـــن أمراضـــها
أو مـــا تراهـــا وهـــي فـــي فنجانهـــا تحكـــي ســـواد العـــين وســـط بياضـــها؟

وقوله :

يقـــول عـــذولي قهـــوة الـــبن مـــرة وشـــربة حلـــو المـــاء لـــيس لهـــا مثـــل
فقلـــت علـــى مـــا عبتهـــا بمـــرارة قـــد اخترتهـــا فـــاختر لنفســـك مـــا يحلـــو

وكان للحيوان - الأليف منه والمتوحش - نصيب في شعر الوصف، وأغرب ما وصل إلينا قصيدة لأبي حيان الأندلسي ، وصف فيها التمساح ، الذي رآه في النيل بصعيد مصر ، وهو - في نظره - غريب الشكل ، قوي مخيف كالأسد ، وسريع كالعقاب في اختطاف الفريسة وتمزيقها ، ومن صفاته أنه يجري في الماء و فوق اليابسة على السواء ، ويدفن بيضه في الرمال إلى حين يخرج منها صغاره ، ويفتح فمه أحيانا ليقف الطير على أسنانه ملتقطة ما بقي بينها من طعام ، وهو لا يخشى من أحد إلا الجاموس ، فإنه يفر منه فرار حالما تتمتع عينه عليه ، يقول في القصيدة:

وخلـــق غريـــب الشـــكل فـــي مصـــر ناشـــئ ومـــا هـــو فـــي أرض ســـوى مصـــر يوجـــدُ
هـــو الســـبع العـــادي بنيـــل صـــعيدها يقـــافص مـــن المـــاء فـــي النيـــل يقصـــدُ
ويخطفـــه خطـــف العقـــاب لصـــيدها ويفصـــله عضـــوة فعضـــوة ويـــزردُ
ومـــا مـــن شـــخوص النيـــل خلـــق لـــه يـــد ورجـــل ســـواه وهـــو فـــي البـــر يصـــعدُ

وثمة شعراء وصفوا اشياء لا تهتز لها النفوس ولا تهفو لها القلوب ، مثل قول احدهم في وصف فانوس:

انظـــر إلـــى الفـــانوس تلـــق متيمـــاً ذرفـــت علـــى فقـــد الحبيـــب دموعُـــهُ
أحيـــا لياليـــه بقلـــب مضـــرم وتعـــد مـــن تحـــت القمـــيص ضـــلوعُهُ

وقول شهاب الدين بن الخيمي (ت ٦٨٥هـ) في وصف سبحة سوداء:

ومسبحة مسودة ، لونها يحكي سواد القلب والناظرِ
كأنني عند اشتغالي بها اعد أيامك يا هاجري

وقول شمس الدين محمد بن ابراهيم العبدلي المشهور بابن المزين (ت ٨١١هـ) في وصف دواة:

أنا دواة يضحك الجود من بكا يراعي جل من قد براهْ
دلوا على جودي من مسه داء من الفقر فإني دواهْ

اسم المحاضرة : الهجاء والخمريات في الأغراض الشعرية التقليدية.

الهجاء :

وهو ضرب من النظم ، يعبر عن الشر المتأتي من الخصومة والعداوة والمشاجرة ، او الكراهية والحقد والضغينة والحسد واللؤم .. وغالبا ما تزدحم فيه معاني الذم والاحتقار والتندر والاستهزاء ، او النعوت المشينة مثل الغدر والبخل والجهل والحمق .. ويصل عند بعض الشعراء إلى استخدام الفاظ القذف والسب والثلب والشتم الرخيص الذي تمجه الأذواق ، وتستهجنه النفوس الطيبة ، كما يلاحظ في أهاجي أحمد بن عبد الدائم بن يوسف الكناني الشارمساحي (ت ٧٢٠هـ)، الذي لم ينج من لسانه البذيء رجال عصره. الفضلاء. ولم يسكت له الشاعر ابن دانيال الموصلي حينما سمع منه كلامة جارحة ، ونظم فيه قصيدة ، قال فيها:

جوابك يا شرمساحي صفع ودفعك عن طريق الضر نفعُ
بدائه لا بدائع منك دلت على لئوم ، ولؤم المرء طبعُ
فما لك في الرقاعة قط رفع ولا لك في الوضاعة قطّ وضعُ

ويطيل الحديث في ذم خصمه وتجريده من كل فضيلة ونباهة ، و في خاتمة هذا الحديث يبرر موقفه من هجمته عليه ، فيقول:

ولما أن سلحت عسلي هجوا ضحكت وقلست عني زال قطعُ
وما لي لن أجيب الكلب لكن لشرك بالذي قوبلت دفعُ
بعثت بها سهامة صائبات لنكس ما له للردع درعُ

وثمة شاعر آخر خبيث الهجو كما يقول الصفدي، هو الشاعر الضرير عز الدين الحسن بن محمد بن احمد بن نجا الإربلي (ت ٦٦٠هـ)، وقد قال فيه مجال الدين عبدالمجيد بن أبي الفرج بن محمد (ت ٦٦٧هـ) منذراً ومهدداً:

أعمـــى البصـــيرة والبصـــر ضـــل الســـبيل وقـــد كفـــرْ
ذم الافاضـــــــل ضـــــــلة كالكلـــــب إذ نـــــبح القمـــــرْ

إن شعر القذف والإفحاش. والسباب مكروه ومستقبح ، وقبره خير من نشره ، ولذلك اعرضنا عن ذكر نماذج له ، و اخذنا بما قاله خلف الأحمر :

ابلغ الهجاء اعفه واصدقه ، وقال مرة أخرى : ما عم لفظه وصدق معناه، ومن **الخمريات :**

الخمرة معروفة منذ القدم ، تولع كثير من الشعراء بمعاقرتها ، والتغني بها، والدعوة إلى شربها، أمثال الأعشى ، والأخطل ، وأبي الهندي، وأبي نواس.. ولعل الحياة الاجتماعية - ولا سيما في العصر العباسي وما بعده - والطبيعة الجميلة والمتنزهات و الحانات والسيارات إلى جانب الحرية أثرة كبيرة في الإقبال عليها والاستئناس بذكر صفاتها ونعوتها. ومن طريف ما يروى أن أحدهم سمى ولده (مدامة)، وكناه أبا الندامى ، وسمى ابنته (الراح) ، وكناها أم الأفراح ، وسمى عبده (الشراب) ، وكناه أبا الإطراب، وسمى وليدته (القهوة) ، وكناها أم النشوة وقد انطلق كثير من الشعراء في العصر الذي ندرسه إلى شرب الخمرة ، ووصف مجالسها وسقاتها وكؤوسها ، وذكر ما تبعثه في النفس من نشوة .. وخصصوا - بابا لها في دواوينهم ، وكان أحد هؤلاء الشعراء و هو محمد بن محمد بن و عبدالعزيز الأسعردي (ت ٦٥٦هـ) ماجنة خليعة ، ضمن ما قاله مع هزلياته في ديوان سماه «سلافة الزرجون في الخلاعة والمجون» ، وهو من ندماء الملاك الناصر يوسف بن محمد بن غازي (ت ٦٥٩هـ) صاحب حلب ثم دمشق و أحد شعرائه المقربين. وكان هذا الملك شاعرة ، وصل إلينا من نظمه في الخمرة والدعوة إلى شربها قوله:

اليـــــوم يـــــوم الأربعـــــا فيـــــه يطيـــــب المرتعـــــى
يـــا صـــاحبي أمـــا تـــرى شـــمال المنـــى قـــد جمعـــا
وقـــد حـــوى مجلســـنا جـــل الســـرور أجمعـــا

إن هذا الشعر الغنائي الذي جاء في مجزوء الرجز في غاية الخفة والرقة والسهولة والوضوح ، يطلب فيه الشاعر من ندمائه وخلانه أن ينهضوا، و يستغلوا ذلك اليوم، يوم الأربعاء ، ويتناولوا فيه الخمرة ، ويقرعوا كؤوسها ، وهي تدار بيد ساق وسيم أهيف شبيه بالبدر في بهاء إشراقه وحسن طلعته . ومثل هذه الدعوة نجدها أيضا عند أحد شعراء هذا الملاك المشهورين ، وهو شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري (ت ٦٧٥هـ)، مثل قوله في مخاطبة نديمه للقيام إلى اغتنام الفرصة بلا توان في شرب سبت الى تجار العقول في معناها:

يـــا نـــديمي، كـــم ذا التـــواني عـــن الله و، وهـــذي المـــدام والأوتـــارُ؟

فاصـــــرف الهـــــم إن ألـــــم بصـــــرف ذات معنـــــى، فيهـــــا العقـــــول تحـــــارُ
تحـــار واغتنمهـــا مـــن كـــف ظبيـــة خـــدر فـــي يـــديها مـــن صـــبغها آثـــارُ

ومما يثير الدهشة أن نجد شعراً كثيراً في الخمرة في كتاب المنشئ الإربلي للشاعر محمد بن أحمد بن عمر المعروف بابن الظهير الأربلي (ت ٦٧٧ هـ) مع إن سيرته في المصادر تشير إلى أنه كان فقيها تقيا ورعا، فهو يزينها للسامع ، ويدعوه إلى الإقبال عليها والانصراف إليها جهرة وعلانية وقرع كؤوسها بلا احتشام ولا وجل، ولا سيما في قصيدته التي يقول فيها:

يـــا مضـــيعاً زمانـــه بالأمـــاني قـــم بحـــق الربيـــع حـــق القيـــامِ
واغتـــنم غفلـــة الحـــوادث وأشـــرب غيـــر مســـتكبر لكـــوب وجـــامِ
مـــن كميـــت راقـــت ورقـــت فمـــا تـــدر ك لطفـــا بـــالفكر والأوهـــامِ

وليس لنا إلا أن نقول : لعله نظم هذا الشعر تظرفا كما فعل الكثيرون آنذاك، واظهاراً للبراعة ، واقتداراً على مجاراة شعراء الخمر والزهر ، أو أنه نظمه في مقتبل عمره و فوران شبابه و قبل لبسه ثوب الحشمة والوقار وسلوكه درب الزهادة والعبادة وتقوى الله. ولم يكن الشعراء بذكر الخمرة وأثرها ودبيبها في الجسم وتزيينها للشاربين ، بل راحوا يصدمون إلى جانب ذلك هاتها وكؤوسها وأباريقها الجميلة مثل قول الأديب سراج الدين عمر بن مسعود المعروف بالمحار(ت ٧١١هـ) في الأبيات الآتية:

يـــا حبـــذا شـــكل إبريـــق تميـــل بـــه منـــا القلـــوب وتصـــبو نحـــوه الحـــدقُ
پـــروق لـــي حـــين أجلـــوه ويعجبنـــي منـــه طـــلاوة ذاك الجســـم والعنـــقُ

اسم المحاضرة : الفنون الشعرية المستحدثة (الدوبيت والموشح) .

الدوبيت :

من الفنون المستحدثة التي أولاها الشعراء اهتمامهم ، وأصل لفظ «الدو بيت : فارسي معناه «البيتان» ، وهو قالب شعري ظهر في المشرق مثل ظهور الموشح في الأندلس والمغرب ، وذكر صفي الدين الحلي أنه لا يجوز في الدوبيت اللحن ، فقال : «و عند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا ، لا يغتفر اللحن فيها ، وهي : الشعر ، والموشح ، والدوبيت وقد سماه العرب باسم «الرباعي» ؛ لأنه مؤلف من أربعة مصاريع وسموا الواحدة منه رباعية ، يراعي في الأول

والثـاني والرابـع منهـا علـى الأقـل قافيـة واحـدة . وكـان أول الـبلاد العربيـة وأكثرهـا تـأثراً به العراق ثم الشام ثم مصر والسودان .. ووزن الدوبيت هو:

فَعْلُنْ مُفَاعلنْ فعولنْ فَعِلنْ = فَعْلُنْ متُفَاعلنْ فعولنْ فَعِلنْ

وقد لا يأتي كل ما قيل من الدوبيت على هذا الوزن ، بل كثيراً ما يشذ بعض ناظميه، ويخرجون عنه بضروب من التصرف ، وكثيراً من الزحافات ويتميز الدوبيت عن غيره ، فهو يتحلى بقواعد الإعراب و موازين الصرف المعروفة.

والدوبيت - كما قال الدكتور مصطفى جواد- من أوزان الشعر و فنونه الجميلة ، وإن مخترعه أبو عبدالله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبدالرحمن بن آدم الشاعر الفارسي السمرقندي الروذكي ، منسوب إلى روذك من نواحي سمرقند المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة. وتبعه شعراء كثيرون ، وانتشرت شهرة بعضهم ، أمثال عمر الخيام (ت قبل ٥٣٠هـ) ، وأوحد الدين المعروف بالأنوري (ت ٥٨٧هـ) ، وعبدالرحمن الجامي (ت ٨٩٨ هـ) . و من المتقدمين في نظم الدوبيت ، أي الرباعي ، أبو حفص عمر بن عثمان بن الحسين بن شعيب الجنزي (ت ٥٥٠ هـ) و هو أحد أئمة النحو والأدب، وأبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان (ت٥٠٨هـ) الشاعر البغدادي المشهور . وقد ذكر مصطفى صادق الرافعي: أن هذا النوع - أي الدوبيت- لم يكن في العربية قبل القرن السابع ، وحجته في ذلك قوله : (لأننا لم نجده في شعر أحد قبل ذلك الزمن ، ولا وجدنا إشارة إليه ولم نجد للشعراء ولعة به إلا في أواخر تلك المئة وما بعدها). وهذا القول بجانب الصواب ، إذ أحصى الدكتور كامل مصطفى الشيبي نيفاً وعشرين شاعراً من القرنين الخامس والسادس للهجرة نظموا في الدوبيت.

أما الدكتور إبراهيم أنيس فيقول : (و الحق إن هذا الوزن لم يشع شيوعا كافيا في اللغة العربية حتى يصبح مألوفا بين الناس، بل لم يرو أن شاعرا مشهورا قد اختصه بنصيب من شعره ، ولهذا لم ترو له إلا مقطوعات قصيرة ، وأغلب الظن أن الناظمين قد حاولوها للتفكه واظهار البراعة والمهارة في النظم من أي وزن، حتى ولو كان أجنبيا عن أوزان الشعر العربي)، وهذا القول غير دقيق ولا يستند إلى دليل مقنع ، و من يرجع إلى ديوان و الدوبيت ، الذي جمعة الدكتور كامل مصطفى الشيبي يجد عددا كبيرا من الدوبيتات لشعراء معروفين أمثال شهاب الدين السهروردي ، وعماد الدين الأصبهاني ، و ابن النبيه المصري ، وفتيان الشاغوري، وحسام الدين الهاجري ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وشهاب الدين التلعفري ، والشاب الظريف ، وابن دقيق العيد ، وعمر بن الوردي ، وصفي الدين الحلي ، وابن حجة الحموي ، وبهاءالدين العاملي ...

وكان الدوبيت وعاء لعدد من أغراض الشعر ، فإن العماد الأصبهاني (ت٥٩٧هـ) نظم ديوان شعر صغيرة النور الدين محمود بن عماد الدين زنكي جميعه دوبيتات في معنى الجهاد ، وصلت إلينا منه نماذج قليلة ، مثل قوله :

أقســـمتُ ســـوى الجهـــاد مـــالي أربُ والراحـــة فـــي ســـواه عنـــدي تعـــبُ
إلا بالجـــــدِّ لا ينـــــالُ الطلـــــبُ والعـــيشُ بـــلا جـــدٍّ جهـــاد لعـــبُ

ولـه أيضـا مجموعـة دوبيـات علـى حـروف الهجـاء أغلبهـا فـي الغـزل وصـلت إلينـا كاملـة ونظم فتيان الشاغوري ديوان خاصة في الدوبيت رآه ابن خلكان ونقل منه قوله:

الوردُ بوجنتيكَ زاهٍ زاهرْ والســـــحرُ بمقلتيـــــكَ وافٍ وافـــــرْ
والعاشقُ في هواكَ ساهٍ ساهرْ يرجو ويخافُ ، فهو شاكٍ شاكرْ

ووصل إلينا القاضي نظام الدين محمد بن اسحاق الأصبهاني (ت ٦٨٠هـ) ديوان بعنوان ((نخبة الشارب وعجالة الراكب)) فيه خمس مئة وثلاثة وأربعون دوبيتا موزعا على حروف الهجاء جميعها ، في عالم متناسق جميل ، عالم يتوحد فيه العشق بالخصب والنزوع الصوفي ، في غنائية هادئة شفافة تبهج النفس ، مثل قوله:

عرَّجـــــتُ صـــــبابة علـــــى مغنـــــاكِ أستنشـــــقُ مـــــن نســـــيمه ريـــــاكِ
دار ضـــــحكت ثغـــــور عينـــــي فيهـــــا لامـــرَّ ســـوى المـــزن بهـــا مـــن بـــاكِ

وقوله:

دعنـــــي وتنســـــمي صـــــبا الأشـــــواق مـــــا العـــيش ســـوي رياضـــة الأخـــلاقِ
لا أرغـــــب عـــــن مصـــــارع العشـــــاقَ إنْ مـــــتَّ علـــــى ذاك فـــــإني بـــــاقِ

وكـان للحـب ، ودواعـي الولـه والغـرام ، ولـواعج الصـبابة والهيـام ، نصـيب كبيـر مـن هذا اللون من النظم ، مثل قول الشاب الظريف (ت٦٨٨هـ) بلغة الوجد الصوفي :

مـــا نـــاح حمـــام الأيـــك فـــي الأغصـــانِ إلا وتزايـــــدتْ بكـــــم أشـــــجاني
عـــــودوا لمعنـــــىً هجـــــركم أســـــقمهُ فالصـــــب بكـــــم مضـــــنى كئيـــــب عـــــاني

وقوله:

قاســـيت بـــك الغـــرام والهجـــر ســـنينْ مـــا بـــين بكـــاء وانـــين و حنـــينْ
أرضـــــيك ومـــــا تـــــزداد إلا غضـــــبا الله - كمـــا أبلـــى بـــك القلـــب - يعـــينْ

الموشح :

في اللغة : وشحه أي البسه الوشاح ، وتوشح واتشح : لبس الوشاح . والوشاح : شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر نشده المرأة بين عاتقها وشحها. والموشح : ضرب من الشعر ينظم على أدوار وقواف معلومة ، وقد سمي بذلك لأنه يشبه الوشاح بنسيجه الجميل وشكله البديع . وقد ظهر الموشح في الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة ، وانتشر بعد ذلك انتشارا واسعة ، عبر به الأندلسيون عن دخائل نفوسهم وسرائرها وتغنوا به في مجالسهم ، ويعلل الأستاذ أحمد ضيف سبب اختراع الموشحات في الأندلس إلى ما تولد في النفوس من رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة في الكلام ، وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة ، أضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث الشعراء على حسب اهوائهم . وقد سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام في بحبوحة اللهو والطرب والرقص وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس. وقد وجدوا ذللك أدعى إلى تحريك النفوس ، فابتدأوا اولا بالأوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ، وغيروا فيها القافية ، وولدوا من ذلك الموشحات ، وأباحوا لأنفسهم التغيير في الوزن والقافية ، فاخترعوا من الأوزان ما لا قاعدة له ، ثم توسعوا في هذه الأوزان وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم واهواءهم . واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء ، فشمل هذا الشعر كل انواع اللهو والتسلي ، ثم تمشي في نفوس جميع الناس حتى اصبح نوعا من انواع الشعر العام فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء في الوعظ والحكم، ومنهم التقي المشهور والصوفي المعروف محيي الدين بن عربي .

والموشح من ابتداع محمد بن محمود القبري الضرير كما يرى ابن بسام، او مقدم بن معافر القرير في رواية ابن خلدون، وهو يختلف عن القصيد ، فمن حيث الوزن تتفق الموشحات المنظومة بالفصحى في معظمها مع أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي المعروفة ، ولكنها قد تخرج في نماذج أخرى عن هذه الأوزان ، ولا سيما إذا كانت منظومة بالعامية او ما يقرب منها ، في إيثار التسكين في عباراتها ، وكذلك تخالف الموشحات قصائد الشعر بخروجها على مبدأ القافية الواحدة ، واعتمادها جملة من القوافي المتناوبة والمتناظرة وفق نسق معين واحتواء بعض اجزائها ولا سيما الخاتمة على العبارة العامية.

لقد كانت الموشحات في الأندلس ثمرة حياة الغني والرخاء ، تلك الحياة التي جنح الناس فيها إلى اللهو واللذة والترف والموسيقى والغناء والطرب إلى جانب روح التجديد التي سادت في المجتمع الذي تظلله حرية القول والعمل والحركة والإبداع..

ولم يعرف المشرق - وإن كان مهده القصيدة - الموشح إلا في عهد متأخر ، وقد ذكر الدكتور محمد زعلول سلام أن الموشح نقل إلى المشرق في أخريات القرن السادس للهجرة، وذهب الدكتور جودت الركابي إلى أن ابن سناء الملك أول من أدخل هذا الفن إلى المشرق. والذي نراه أن الموشحات انتقلت إلى المشرق بوساطة رحلات العلماء والأدباء والفقهاء في نهاية القرن الخامس للهجرة ، وبدأ الشعراء بالنظم على غرارها في مطلع القرن السادس للهجرة ، وكانت مصر السباقة إلى ذلك ، ولاسيما الاسكندرية، ومن ابرز الشعراء الذين وصلت الينا نماذج من موشحاتهم : علي ابن عياد الإسكندري(ت ٥٢٦هـ) ، وظافر الحداد الإسكندري (ت٥٢٩هـ) ، وابن قلاقس الإسكندري (ت٥٦٧هـ) ، وموسى بن علي الإسكندري (ت٥٧٢هـ) .

وقد حاول المشارقة - بعد استيعاب الموشحات الأندلسية ودراستها وحفظها - أن يظهروا مقدرتهم وكفاءتهم في هذا الفن الجديد ، فنظموا فيه ، وأجادوا أيما إجادة ، وغيروا بعض صوره ، وجددوا في الوانه . وكان ابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ) احد المعنين المشهورين به ، وله كتاب «دار الطراز في عمل الموشحات» ، وقد أورد فيه موشحات اندلسية لشعراء مشهورين بنظمها ووضع إلى جوارها موشحات من نظمه ، وكأنه أراد أن يثبت مقدرته فيه وتفوقه على اقرانه المغاربة ، ومن محاولاته في هذا التفوق زيادة عدد اجزاء المرشح الواحد ، ولا سيما في الأقفال ، إذ اوصل اجزاءها إلى أحد عشر جزءا وكان العدد المعروف في الموشح الأندلسي لا يكاد يتجاوز ثمانية اجزاء في القفل الواحد.

ومضى الموشح المشرقي نحو الازدهار والتطور ، وكثر عدد الوشاحين ، نذكر منهم على سبيل المثال : ابن الدهان الموصلي (ت ٥٨١هـ) ، وأبا عثمان البلطي الموصلي (ت٥٩٩هـ) والقاسم بن القاسم الواسطي (ت٦٣٦هـ)، وداود بن عيسى الأيوبي (ت ٦٥٦هـ) ، وابن زيلاق الموصلي (ت ٦٦٠هـ) ، وأيدمر المحيوي (ت ٦٧٤هـ)، وشهاب الدين التلعفري (ت٦٧٥هـ) ، وتقي الدين عبد الله بن علي السروجي (ت ٩٩٣هـ) ، وأحمد بن عبدالملك العزازي (ت ٧١٠هـ) ، وابن دانيال الكحال الموصلي (ت ٧١٠هـ)، والسراج المحار (ت ٧١١هـ) ، وصدر الدين بن الوكيل (ت ٧١٩هـ) ، وابن الملحمي الواعظ الواسطي (ت ٧٤٤هـ) ، وصفي الدين الحلي (ت ٧٥٠هـ)، و ابن نباتة المصري (ت ٧٦٨هـ) ... وكان الوشاحون على علم بالموسيقى والغناء ، فقد جاء في فوات الوفيات : «أن شمس الدين محمد بن علي بن عمر المازني الدهان (ت ٧٢١) كان يعمل صناعة الدهن ، وينظم الشعر الرقيق، ويدري الموسيقي ، ويعمل الشعر ويلحنه و يغني به المغنون ، وكان يلعب بالقانون» ، وأورد له الموشح الآتي :

يـــا بـــأبي غصـــن بانـــة حمـــلا بـــدر دجـــيً بالجمـــال قـــد كمـــلا، اهيـــفْ
فريـــد حســـن مـــا مـــاس أو ســـفرا
إلا اغـــار القضـــيب والقمـــرا

يبـــــــــــدي لنـــــــــــا بابتســـــــــــامه دررا

فـــــي شـــــهد لـــــذ طعمـــــه وحـــــلا كـــــأن انفاســـــه نســـــيمُ طـــــلا ، قرقـــــفْ

مـــــــــورد الخـــــــــد فـــــــــاتر المقـــــــــلِ
يفـــــــــوق ظبـــــــــي الكنـــــــــاس بالكحـــــــــلِ
وينثنـــــــــي كالقضـــــــــيب فـــــــــي الميـــــــــلِ
من حمل ردفٍ مثل الكثيب علا نيط بخصرٍ كأضلعي نحلا ، مخطفْ

وقد علل الدكتور عبدالعزيز الأهواني ذلك بقوله : ((إن التوشيح قوي اتصاله بفن آخر ، هو الموسيقى والتوقيع ، فخضع لتطور جديد في الوزن والقافية ، ولهذه الصلة نفسها صغر حجم الموشحة ، فلم تطل كالقصيدة ... ليمكن أن تغني في مجلس و احد)).

وتنقسم الموشحات بشكل عام من ناحية الأوزان إلى قسمين ، منها ما جاء على اوزان اشعار العرب ، ومنها ما لا وزن له ، وهو كما يقول ابن سناء الملك : الكثير والجم الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط ، وكنت أردت أن أقيم لها عروضا يكون دفترا لحسابها ، وميزانه الأوتاد واسبابها ، فعز ذلك واعوز، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف. وقد حاول المستشرق الألماني «هارتمان» في دراسة له إرجاع اوزان الموشحات إلى مئة وستة واربعين وزنا او بحرة مشتقة من بحور الشعر العربي الستة عشر ، غير أن هذه المحاولة تتسم بالتكلف في بعض جوانبها ، إذ هناك موشحات تشذ عن الأوزان التي ذكرها هارتمان ولا تخضع لها.

لقد كانت الموشحات الأندلسية تتراود بين الفصحى والعامية ، وقد تساهل عدد من الشعراء في هذه اللغة طالما كانوا يبغون ارضاء الأذواق العامة ، كما كانت ترضي الأغاني الشعبية هذه الأذواق . أما الموشحات المشرقية فكانت في الغالب، تدور - وإن لم تخل من : اللحن - في تلك الأوزان العربية المعروفة ، ويحسن بنا أن نورد هنا موشحة لنقف على تعاريف أجزائها ، قال

خليل بن أيبك الصفدي:

يـــــا صـــــبا مســـــكية الـــــنفسِ أنـــــت قـــــد جـــــددت لـــــي الولعـــــا

كانـــــــــت الأحشـــــــــاءُ قـــــــــد خمـــــــــدتْ
وســـــــــيولُ الـــــــــدمع قـــــــــد جمـــــــــدتْ

وأيــــــــــادي الصـــــــــبر قـــــــــد حمــــــــــدتْ

ثــــــــــم لمـــــــــا ســـــــــرت فــــــــــي الغلـــــــــسِ
بــــــــــان صـــــــــــبري والســـــــــــلو معـــــــــا

<u>المطلع :</u> إذا افتتح الموشح به سمي تامة ، وإن لم يستهل به سمي أقرع ، أي ليس في رأسه شيء ، وموشحة الصفدي السابقة تامة .

<u>القفل :</u> وهو يشبه المطلع في الوزن والقافية ، والأقفال ليس لها عدد محدد ولكن الحد الأدنى لها خمسة اقفال ، والقفل الواحد يتركب من جزأين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة ، وقد اوصله ابن سناء الملك إلى احد عشر.

<u>الغصن :</u> وهو القسم الواحد من المطلع والقفل والخرجة ، وقد يكون جزأين ، او ثلاثة او اربعة .

<u>الدور :</u> ويأتي بعده المطلع إذا كان الموشح تامة ، او مباشرة إذا كان الموشح اقرع ، والحد الأدنى له ثلاثة أقسام ، وقد يكون اربعة او خمسة ولا يتجاوز ذلك إلا نادرة.

<u>السمط :</u> وهو القسم الواحد من الدور ، ويكون مفردة كما في موشحة الصفدي ، او يكون من فقرتين او ثلاث او اربع .

<u>البيت :</u> وهو الدور مع القفل الذي يليه .

<u>الخرجة :</u> هي آخر قفل في الموشح ، ومع أن المطلع ليس ركنا اساسا في الموشح، إلا أن الأقفال والخرجة في غاية الأهمية وبدونها لا يستوفي الموشح شروطه. والخرجة هي الجزء الوحيد من أجزاء المرشح الذي باح فيه اللحن، بل ويستحسن، ومعنى الخرجة عند الوشاح - كما يرى الدكتور عبدالعزيز الأهواني - الخروج من الكلام المغرب إلى الكلام الملحون ، زيادة على الخروج من المديح إلى الغزل الذي اعتادوا أن يختموا به الموشح ، وهذا لا يوجد بوضوح في الزجل ، هذا إن لم يكن اصطلاحا موسيقية.

ومن ابرز ما يلاحظ في الموشح المشرقي التطور في الأغراض التي عالجها ، فإلى جانب **الغزل، والمجون ، والخمر، والمديح ، والهجاء ، والرثاء** ، نجد موشحات في **الزهد والتصرف ، و المراسلة بين الأدباء او ما يعرف بالإخوانيات.**

أما من الناحية الفنية فإن الوشاحين المشارقة اغرقوا في ضروب البيان والبديع ، لا سيما التورية ، ويذكر المؤرخون اعلامه في فن التوشيح عرفوا باستعمالهم التورية، منهم ابن نباتة المصري الذي ابدى براعة في استعمالها ، وتفنن في تحقيق الانسجام بين اللحن والغناء من جهة ، وبين الفاظ الموشحة من جهة أخرى.

اسم المحاضرة : الفنون الشعرية المستحدثة (الزجل والمواليا).

الزجل :

الزَّجَلُ : بالتحريك ، اللعب والجلبة ورفع الصوت ، وقد زجل زجلا فهو زجل وزاجل ، وربما أوقع الزاجل على الغناء ، قال :

وهـــــــو يغنيهـــــــا غنـــــــاء زاجـــــــلاً

فالزجل فن يعتمد إلى حد كبير على الغناء والحركة ، حتى يتسنى لسامعيه أن يتلذذوا به . قال صفي الدين الحلي : (إنما سمي هذا الفن زجلا ، لأنه لا يلتذ به، وتفهم مقاطيع اوزانه ، ولزوم قوافيه ، حتى يغنى به ويصوت، فيزول اللبس بذلك).

وقد ولد الزجل في الأندلس في أواخر القرن الرابع للهجرة ، ونشأ فيها ، وتطور على ايدي زجالة مشهورين ، ولعل من أبرز من اسهم في إفرازه من التوشيح في القرن الخامس للهجرة الزجال المشهور أخطل بن مارة ، حتى إذا جاء القرن السادس للهجرة، بلغ الزجل عصره الذهبي على يد ابي بكر بن قزمان (ت٥٥٥هـ) شيخ صناعته وامام فنه ، ثم استمر تطوره في القرن السابع للهجرة ، ولا سيما فيما يتعلق بجنوحه نحو التصوف والزهد بسبب ما حاق بالأندلس من المحن والمصائب والنكبات والنوائب ..

وانتقل الزجل إلى المشرق ، ودخل مصر قبل غيرها ، بحكم قربها من المغرب ، ثم انتقل إلى الأقطار العربية الأخرى ، ولا سيما الشام والعراق . واول من عني به من المشارقة الشاعر المشهور صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ)،إذ جعله في مقدمة الفنون الشعرية غير المعربة في كتابه ((العاطل الحالي والمرخص الغالي))، وتابعه في هذا المجال تقي الدين ابو بكر بن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) في كتابه : (بلوغ الأمل في فن الزجل).

قال صفي الدين الحلي في مكانة الزجل ومنزلته بين الفنون المستحدثة الأخرى : «هو ارفعها رتبة ، واشرفها نسبة ، واكثرها اوزانا ، وارجحها ميزانا .ولم تزل إلى عصرنا هذا أوزانه متجددة، وقوافيه متعددة، ومخترعوه اهل المغرب، ثم تداوله الناس بعدهم ». وقال في اقسامه : «وقد قسمه مخترعوه على اربعة اقسام ، يفرق بينها بمضمونها المفهوم ، لا بالأوزان واللزوم ، فلقبوا ما تضمن الغزل والنسيب والخمري والزهري : زجلا . وما تضمن الهزال

والخلاعة و الإحماض : بُلّيقا. وما تضمن الهجاء والثلب : قرقياً. وما تضمن المواعظ والحكمة : مكفراً، ولقبه مشتق من تكفير الذنوب ، واطلقوا على كل ما اعرب بعض الفاظه من هذه الفنون لقب المُزنّم، واشتقاق هذا اللقب من الزنيم ، وهو المستلحق في قوم ليس منهم ».

والزجل ملحون ، بعيد عن الإعراب ، يغلب عليه التسكين ، ويصلح للغناء ، وينظم على بحور الشعر المعروفة إلى جانب بحور أخرى ابتدعها الزجالة ، والشائع فيه أن يكون البيت من أربعة أشطر أو مصاريع ، الثلاثة الأولى من روي معين، والرابع من روي مغاير لها ، ولكنه ملتزم في كل شطر رابع في القصيدة ، ويشيع الجناس عادة في القوافي الثلاث الأولى، وقد ينظم الزجل أقفالا شبيهة بالموشح ، ولا يزيد القفل الواحد على بيتين ست في الغالب ، وربما يكون للبيت رويان ، أحدهما للصدر والآخر للعجز، وقد تسوده قافية واحدة.

لقد راج سوق الزجل في مصر كثيرة ، و زاد الاقبال عليه ، ومن الذين نظموا فيه عبد الملك بن الأعز بن عمران التقي الأسنائي (ت٧٠٧هـ)، إذ قال:

جفـــــــوني مـــــــا تنـــــــامُ إلا   لعلـــــــــــــــــــــــي أن أراكْ
فزُرنـــــي قـــــد برانـــــي الشـــــو   قُ يــــــا غصــــــــنَ الأراكْ
وطرفـــــي مـــــا رأى مثلـــــكْ   وقلبـــــي قـــــد حــــــواكْ

فهو لك لم يزل مسكن   فسبحان الذي أسكن   وحسنك كم به أفتنْ
وما قصدي سواكْ

حبيبـــــي آه مـــــا أحلـــــى   هـــــواني فـــــي هـــــواكْ
فخـــــل الصـــــد والهجـــــرانْ   ولا تســـــمع مـــــلامْ
وصـــــلني يـــــا قضـــــيب البـــــانْ   فـــــي قلبـــــي ضـــــرامْ
وجـــــد للهـــــائم الولهـــــانْ   يـــــا بـــــدر التمـــــامْ

وهكذا يلاحظ القارئ هذا الزجل اللطيف المنساب في لغة رقيقة وبعيدة عن الألفاظ النابية التي تخدش السمع، وبخلاف الأزجال الكثيرة التي قيلت في الخلاعة والمجون .

ومن الذين برعوا في نظم الأزجال في مصر الوزير محمد بن محمد بن علي (ت٧٠٧ه)، ومحمد بن عمر المعروف بابن المرحل (ت ٧١٦ه) ، و ابراهيم بن الحائك المعمار (ت٧٤٩هـ).

وسرعان ما انتقل الزجل إلى الشام، واستساغة العامة والخاصة ، وعبروا به عن مشاعرهم وأحاسيسهم مهم ، وكثر عدد الزجالة ، ومن أشهر هم شهاب الدين أحمد بن عثمان الأمشاطي (ت ٧٢٥ هـ) ، وعلي بن مقاتل الحموي (ت٧٦١هـ) ، وابن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ).

لقد نظم الأدباء الزجل إلى جوار القصيد ، واستشهدوا به في تآليفهم ، حتى إن الشيخ شمس الدين بن الصائغ (ت ٧٧٦هـ) أورد في شرحه لبردة البوصيري الذي سماه «رقم البردة» شيئا من محاسن أزجال عصره . قال - ابن حجة الحموي : «ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ - رحمه الله قد استشهد في شرح البردة الذي سماه «الرقم بغالب أهل عصره فيما عرض من أنواع البديع حتى أورد لهم شيئا من محاسن الزجل».

ووصل الرجل إلى العراق ، و أقبل عليه الشعراء، و نظموا فيه. قال صفي الدين الحلي : «ولأهل بغداد خاصة دون المشارقة أزجال رقيقة ، بألفاظ لطيفة، على اصطلاح لغتهم ، وجري ألسنتهم، على قاعدة اللحن المختص بهم ، كالإمالة والإدغام و تبديل حرف بآخر للتحسين ، و غير ذلك لا يشاركهم فيها مشارك».

واشتهر عدد من الشعراء العراقيين بنظم الزجل ، ولم يتورع بعضهم من الإغراق في المجون والخلاعة والتهتك ، مثل تقي الدين علي بن عبدالعزيز البغدادي (ت٦٨٤هـ)، وقد أورد ابن شاكر الكتبي نماذج من أزجاله ، وقال عنه : كان من أظرف خلق الله تعالى ، وأخفهم روحاه .

ولصفي الدين الحلي أزجال لطيفة، حاكي في قسم منها أزجال المصريين والشاميين من ذلك مانظمه للمسحرين ، ليغنوه في ليالي شهر رمضان، وفيه مدح و دعاء للملك الصالح شمس الدين بن غازي بن أرفق صاحب ماردين:

أنـــت يـــا قبلـــة الكـــرامْ	زينـــة المـــال والبنـــينْ
الله يعطيـــك فـــوق ذا المقـــامْ	ويعيـــدك علـــى الســـنينْ
أنـــت شـــامه بـــين الأنـــامْ	الله يحـــرس شـــمايلكْ

وفي خاتمة هذا الزجل يقول:

لا عـــدمنا فـــي كـــل صـــومْ	ذا الســحور فيـــك وذا الهنـــا
كـــل ليلـــة وكـــل يـــومْ	ننشـــر الشـــكر والثنـــا
الله يحييـــك بـــين خيـــر قـــومْ	بـــالغ القصـــد والمنـــى
حين تقضـــي فرضَ الصـــيامْ	بـــين ولـــدانٍ وحـــورٍ وعـــينْ

المواليا :

نظم مستحدث اختلف الدارسون القدامى في نشأته وتاريخه ، قال صفي الدين الحلي: ((له وزن واحد ، وأربع قواف على روي واحد، ومخترعوه أهل واسط من بحر البسيط ... ونظموا فيه اللفظ القوي الجزل في الغزل والمديح والصنائع على قاعدة القريض المعرب... ولم يزالوا على هذا الأسلوب حتى تسلمه البغاددة ، فلطفوه ونحوه ، ورققوا ودققوا وحذفوا الإعراب منه ، واعتمدوا على سهولة اللفظ ، ورشاقة المعنى ، ونظموا فيه الجد والهزل ، والرقيق والجزل

، حتى عرف بهم دون مخترعيه ، ونسب إليهم وليسوا بمبدعيه ، ثم شاع في الأمصار، وتداوله الناس في الأسفار)). وقال آخرون : اخترعه أشياع البرامكة وأتباعهم بعد نكبتهم ، فقد حرم عليهم هارون الرشيد رثاءهم باللغة الفصحى، فراحوا يرثونهم وينوحون عليهم بلغة غير معربة ، أي بما يشبه العامية ، وينهون مقاطعهم بعبارة ((يا مواليا)) فعرف هذا اللون بالمواليا. ولعل ذلك من زيادات موالي بني برمك الذين عز عليهم مصرع أسيادهم وقيل : سمي به لمولاة بعض قوافيه بعضا.

ويتكون المواليا من أربعة مصاريع متشابهة الأواخر ساكنة الروي ، و منظوم على بحر البسيط ، والذين ينظمونه يسمون الموالة، وهم لا يلتزمون فيه ضوابط اللغة العربية من حيث الإعراب . وقد أشار ابن خلكان إلى طبيعة هذا الفن وطريقة نظمه فقال : ((ألم بعض البغاددة في مواليا على اصطلاحهم فإنهم ما يتفيدون بالإعراب فيه، بل يأتون به كيفما اتفق ، وهو:

ظفـــــرت ليلـــــهْ بليلتـــــي ظفـــــرة المجنـــــونْ
وقلـــــت وافـــــى لحظـــــي طـــــالع ميمـــــونْ
تبســـــمت فأضـــــاء اللؤلـــــؤ المكنـــــونْ
صـــــار الـــــدجى كالضـــــحى فاســـــتيقظ الواشـــــونْ))

وشاع المواليا في أواخر الدولة العباسية . وتولع به عدد من الشعراء ، . وخصصوا له مكانا في دواوينهم ، منهم الشاعر المشهور حسام الدين الهاجري الإربلي (ت٦٣٢هـ)، من ذلك قوله في محبوب رآه في منامه وقد عاد إليه بعد جفوة وقطيعة:

يـــــامن ملكنـــــي وعـــــن طـــــرق الوفـــــا عـــــرَّجْ
أطلـــــق رقـــــادي وجفنـــــي بالســـــهر زوَّجْ
ومـــــن لحســـــنك بتـــــاج الحســـــن قـــــد تـــــوّجْ
عيـــــد الوصـــــال فبحـــــر الشـــــوق قـــــد مـــــوجْ

ومن الشعراء العراقيين المشهورين بنظم المواليا مجد الدين اسعد بن ابراهيم النشابي (ت٦٥٦هـ) ، وعلي بن إبراهيم بن معتوق المعروف بابن الثردة الواسطي (ت٧٥٠هـ) وعز الدين الموصلي (ت٧٨٩هـ)... وقد أورد صفي الدين الحلي مجموعة من نظمه في كتابه: ((العاطل الحالي والمرخص الغالي)) ، مثل قوله في العتاب:

عنـــــي تســـــلّيت وأســـــياف الجفـــــا ســـــلّيتْ
ومـــــن توليـــــت عـــــن طـــــرق الوفـــــا ولّيـــــتْ
و لمـــــا تمليـــــت بالأعمـــــال لـــــي مليـــــتْ
إذا تخليـــــت تعـــــرف قـــــدر مـــــن خليـــــتْ

وقد طاب للمصريين النظم في المواليا ، قال ابن خلدون : « أتوا فيه بالغرائب ، وتبحروا في أساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية ، فجاؤوا بالعجائب» ، ونسب ابن خلكان مواليا إلى

عمر بن الفارض (ت ٦٣٢هـ) وعلق عليه بقوله : وقد كتبته على اصطلاحهم ؛ فإنهم لا يراعون فيه الإعراب والضبط ، بل يجوزون فيه اللحن، بل غالبه ملحون ، فلا يؤاخذ من يقف عليه، ومن الذين اشتهروا في مصر بنظمه الحسن بن علي المعروف بابن طرطور (ت٧٦٢هـ)، وأحمد بن علي المعروف بالحجازي، (ت٨٣٦هـ)، وعبدالله بن أبي الفرج بن موسى القبطي المصري (ت٨٤٠هـ) و بدر الدين الزيتوني (ت ٩١٠هـ) وكان فارسا مجلية في نظم المواليا، وهو القائل في مدح الرسول الكريم ﷺ:

امـــــــــدح أمـــــــــة محمد يظهـــــــــر الإبنـــــــــاسْ
وحـــــد فـــــي المـــــدح واخـــــزي الحاســـــد الخنـــــاسْ
مـــــنهم ورب الفلـــــق فـــــي ســـــائر الأجنـــــاسْ
مـــــن القـــــدم خيـــــر أمـــــة أخرجـــــت للنـــــاسْ

ورغب الشاموين بالمواليا وشاع بينهم أيضاً في النظم والكتابة والانشاد ولحنه المغنون في الاغراض التي نُظمت فيه ، وهو أقرب الى المواليا المصري لتقارب البلدين في الثقافة والاشتراك في حكم المماليك لهم ، ومن اشهر من نظم المواليا في بلاد الشام هم : عز الدين ابراهيم بن محمد بن طرخان المعروف بابن السويدي (ت ٦٩٠هـ)، والصفدي (ت ٧٦٤هـ)، ومن ذلك قول أبن السويدي في الغزل :

البـــــــــدرُ والسعدُ : ذا شبـــــــهك وذا نجمـكْ
والـــــــــــــقدُّ واللحظُ : ذا رمحكْ وذا سهمـــكْ
والبغـــــــــــــضّ والحبُّ : ذا قسمي وذا قسمـــكْ
والمســـــــــــــكُ والحسنُ : ذا خالك وذا عمـــــكْ

وشاع المواليا في السودان ، وفي بلاد المغرب وكان يعرف هناك بـ : (العيطة) ونُظم في أغراض الجهاد والحماسة والشعر الديني ، وينتهي بعد إنشاده بكلمة : سيدي . وهو لا يخرج عما كان عليه في بلاد المشرق من اللحن ومن اللطافة في التعبير والصور والمضمون .

اسم المحاضرة : الفنون الشعرية المستحدثة (الكان والكان والقوما والبند) .

الكان وكان :

ظهر هذا اللون من النظم المستحدث في العراق ، في القرن الخامس للهجرة وشاع بعد ذلك في الأقطار العربية ، ونسب فضل اختراعه إلى البغداديين ، وقد سُمّي بهذا

الاسم ؛ لأنهم يقولون في حكاياتهم «كان وكان» للدلالة على إنها روايات لا أساس لها ولا سند . قال صفي الدين الحلي : «ومخترعوه البغداديون، ثم تداوله الناس في البلاد ، فلم يجارهم فيه مجار ، ولم يدخل لهم مبار في غبار ، وسُمّي بذلك لأنهم أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه يروي الحكايات ، والخرافات ، والمنصوبات ، والمراجعات ، فكان قائله يحكي ما كان وكان» . .

والكان وكان من الشعر الملحون ، ينظم بأربعة أشطر مختلفة ، ويكون الشطر الأخير منه - أي الرابع مردوفاً بحرف علة ، وتسمى الأشطر الأربعة بيتا ، ويمكن للشاعر نظم عدة أبيات على قافية الشطر الأخير ، ولهذا الفن وزن واحد هو :

مستفعلنْ فاعلاتنْ مستفعلن مستفعلنْ
مستفعلن فاعلاتنْ مستفعلنْ فعلانْ

وتكثر في هذا النظم المواعظ والزهد والحكم والأمثال . قال صفي الدين الحلي : ((واتسع طريق النظم فيه ، وظهر لهم مثل الشيخ العلامة ، قدوة الأفاضل ، جمال الدين بن الجوزي ، والشيخ الفاضل الكامل شمس الدين محمد الواعظ ، والشيخ الأفضل الأكمل شمس الدين بن الكوفي الواعظ ، رحمهم الله تعالى ، فنظموا فيه المواعظ ، والرقائق ، والزهديات ، والأمثال ، والحكم ، فتداولها الناس ، وصارت إلى الآن تستحضر في المذاكرات ، ويذكر بها في المحاضرات)). ومن طريف ما قاله صفي الدين الحلي في الفراق وما يعاني المشوق من لوعة واشتياق:

أيْ سادة هجرونـي وهم نزول بخاطري
لا اوحشَ الله منكم في سائر الأوقاتْ

***

أوحشتم العين مني وإنكم في خاطري
والقلب في النور منكم والعين في الظلماتْ

وانتقل الكان وكان إلى مصر ، وسمي بـ «الزكالش»، قال علي بن ظافر الأزدي : «و أخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رُزيّك أنشد بمجلسه بيتا من الأوزان التي يسميها المصريون «الزكالش » ويسميها العراقيون «الكان وكان» .

النارُ بين ضلوعي وأنا غريق في دموعي
كني فتيلة قنديلْ أموتْ غريقْ وحريقْ

ومن أبرز الشعراء في نظم الكان وكان في القطر المصري : شرف الدين بن أسد (ت٧٣٨هـ). وبدر الدين الزيتوني (ت ٩١٠هـ)، وابراهيم المعمار (ت٩٤٧هـ)، وله:

شـــــكوت للحـــــب دائـــــي ومـــــا ألاقـــــي مـــــن الهـــــوى
وقلـــــت : يـــــا نـــــور عينـــــي قـــــد شـــــفني التبـــــريحْ
قـــــال : تـــــدعي الحـــــب تكـــــذب مســـــارا عليـــــك دلائلـــــهْ
قلـــــت : أكتمـــــوا فـــــي فـــــؤادي فقـــــال : هـــــذا ريـــــحْ

أما في الشام فلم يشع كثيراً، وقد أورد ابن شاكر الكتبي مقاطع منه للشاعر علي بن الحسن بن منصور الحريري (ت ٦٤٥هـ) وهي في غاية الفحش والبذاءة، ونذكر هنا ما قاله الشاعر عمر بن الوردي في الطاعون الذي اجتاح الشام سنة ٧٤٩ للهجرة وافني الكثيرين:

أعـــــوذ بـــــالله ربـــــي مـــــن شـــــر طـــــاعون النســـــبْ
بـــــاروده المســـــتعلي قـــــد طـــــار فـــــي الأقطـــــارْ

***

يـــــدخل إلـــــى الـــــدار ويحلـــــف مـــــا أخـــــرج إلا بأهلهـــــا
معـــــي كتـــــاب القاضـــــي بكـــــل مـــــن فـــــي الـــــدارْ

لا جمال ولا حسن في هذا الكان وكان ؛ ولذلك قال المحبي :((والقوما والكان كان لا يعرفهما سوى أهل العراق ، وربما تكلف غيرهم فنظمها)).

القُوما :

فن شعري ظهر في بغداد، وشاع في أواخر الدولة العباسية، ويعزى اختراعه إلى أبي بكر محمد بن عبد الغني المعروف بابن نُقطة (ت٦٢٩هـ) وقيل اخترعه شخص آخر قبله لا اعرف اسمه، وقد أشار صفي الدين الحلي إلى ذلك ، فقال : ((ومخترعوه البغداديون أيضا في دولة الخلفاء من بني العباس ، رضي الله تعالى عنهم، برسم السحور في شهر رمضان. واشتقاق اسمه من قول المغنين للتسحير في آخر كل بيت منه ، بعد غناء الرمل أو الزجل قُوما للسحور، ينبهون به رب المنزل، ويذكرون فيه مدحه، والدعاء له و تقاضيه بالإنعام ، فانطلق عليه هذا الاسم وصار علما له . ثم لما شاع وكثر فيه التصنيف ، نظموا فيه الغزل ، والزهري ، والعتاب، وسائر الأنواع ، كما قبله من الفنون الأخر . وقيل : إن أول من اخترعه منهم ابن نقطة ، برسم الخزينة الناصر رضوان الله تعالى عليه ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وجعل لابن نقطة عليه في كل سنة ما يفضل عنه من الإنعام ، فلما توفي ابن نقطة ، وكان له ولد صغير ماهر في نظم القوما والغناء به ، وأراد أن يعرف الخليفة بموت والده، ليجريه على معروفه ، فتعذر ذلك عليه ، فصبر إلى دخول شهر رمضان. ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ، ووقف في أول ليلة من

الشـهر تحـت الطيـارة، وغنـي النوبـة بصـوت رقيـق ، فأصـغى الخليفـة إليـه وطـرب لـه، فلما وصل إلى القوما كان أول ما قاله :

يـــــا ســـــــيد الســـــــاداتْ لـــــــك بـــــــالكرم عـــــــاداتْ
أنـــــا بُنَّـــــي ابـــــن نقطـــــهْ تعـــــيشْ، أبـــــي قـــــد مـــــاتْ

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار، واستحضره، وخلع عليه، وفرض له ضعفي ما كان لأبيه)). وأورد ابن حجة الحموي هذا الخبر بلا تغيير ولا تعليق. وأشار اليه ضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ) دون أن يذكر اسمه، فقال: «بلغني أن قوما ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات ، وينادون بالسحور ، ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيئة الشعر ، وإن لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئا منه ، فوجدت فيه معاني حسنة ، مليحة ، ومعاني غريبة» والقُوما ينظم بأربعة أشطر ، ثلاثة منها بقافية واحدة وروي واحد ، وهي الأول والثاني والرابع ، والشطر الثالث أطولها وهو مهمل القافية ، ومجموع الأشطر الأربعة يسمى بيتاً أما وزن القوما فهو : مستفعلن فعلان (أو فاعلان) وأغلب هذا الفن جاء في المديح ، مثل قول صفي الدين الحلي في الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة المتوفي سنة ٧٣٢ للهجرة:

لازالَ ســـــــــعدكْ جديـــــــــدْ دايـــــــمْ وجـــــــدكْ ســـــــعيدْ
ولا برحـــــــــت مهنَّـــــــــى بكـــــــل صـــــــومٍ وعيـــــــدْ

البند:

فـن ادبـي نشـا فـي جنـوب العـراق فـي القـرن الحـادي عشـر للهجـرة ثـم شـاع فـي منطقـة الخلـيج العربـي طيلـة ثلاثـة قـرون. ويكتـب البنـد علـى هيئـة النثـر ، وهـو ذو وزنـين : الرمـل والهـزج يبـدعان فـي فنيـة مسـتندة إلـى قواعـد العـروض العربـي. والبنـد، لـه شـبه بالشـعر الحـر مـن حيـث إقامـة الـوزن علـى «التفعيلـة» دون الأشـطر. ويبـدو أنـه لـم يكـن دائمـا بأشـطر متباينـة ، فهنـاك بنـود ذات اشـطر متسـاوية فـي الطـول كالشـعر العمـودي من نحو ما نجد في بعض بنود الشيخ حسن العشاري (ت ١٢٠٠هـ).

وقـد اشـتهر الكثيـرون فـي نظـم البنـد ، أمثـال شـهاب الـدين أبـي معتـوق الموسـوي (ت ١٠٨٧هـ) ، وعلـي بـن باليـل الـدورقي الجزائـري (ت ١١٠٠هـ)، وعبـد الـرؤوف بـن الحسـين الحسـني الجـد حفصـي (ت ١١١٣ هــ) و محمد بـن احمـد الزينـي (ت ١٢١٦هـ) ومحمد بـن اسـماعيل الملقـب بـابن الخلفـة (ت ١٢٩٧هـ) ، وعبـد الغفـار الأخـرس بـن عبدالواحـد (ت ١٢٩٠هـ) ، والشـيخ احمـد بـن درويـش علـي البغـدادي الحـائري (ت١٣٢٩ هـ) .

وقد درج العراقيون على إنشاد البنود على إحدى طريقتين ، إما أنهم يقرأونها معربين اواخر كلماتها ، ويغلب هذا في احوال القراءة السريعة ، وإما أنهم يقفون اختياره في مواضع القوافي حيثما يمكن الوقف، فيكسبون البند ظرفأ ورشاقة وموسيقى ، قد لا نجدها في سواه من المنظوم الخارج على عمود الشعر من الموشح وما يجري مجراه ، وهذه هي الطريقة الشائعة في الإنشاد.

وقد توسع عدد من الشعراء في نظم البنود ، مثل علي بن باليل الدورقي الجزائري احد شعراء الأحواز البارزين ، الذي جمع قسما من بنوده في صنف، قال في مقدمته: «هذه نبذة بنود قد بندتها على بحر الرمل ، وعدتها مئة وثلاثة وخمسون بند، غزلاً ومدحاً ، وقد وضعت كل بند على اربعين كلمة اسما كانت او فعلا او حرفا، مشيرا في كل منها إلى مسألة علمية ، او صناعة بديعية ، وإلى كل من الأمرين المعية ...».

والبنود شبيهة بالشعر العربي الموروث من جهة الموضوعات كالمديح والرثاء والهجاء والوصف ... ومثال على ذلك قول عبدالغفار الأخرس في مدح السيد سليمان بن السيد علي القادري الكيلاني المتوفى سنة ١٣١٥ للهجرة:

((محبٌ ذائبُ الدمع ، رماه البين بالصدع ، بكى من حرقة الوجد ، على من حفظ العهد ، وخشف ناعم الخد، مليح عبل الردف ، صبيح لين الوطف ، ادار الكاس والطاس ، وحاكى الورد والآس ، لعمري منه خدا و عذارا، ولقد طالت عليه حسراتي بعدما كانت قصارا ، فهل يرجع ما فات ، و هيهات وهيهات ، فلو تنظر اشياء نظرناها ، بأيام قضيناها، بحيث ابتسم الزهر ، وقد بلله القطر ، فسلكُ اللؤلؤ الرطب بجيد الغصن مثبوت ، وطرف النرجس الغض بخد الورد مبهوت ، وللأوراق تصفيف، وللورقاء تصويت ، ووشي الحسن في الآفاق محمر ومثبوت ، وسيف البرق مشهور ، وقلب النهر مذعور ، وشمل الأرض بالأزهار مجموع ومنثور)).

اسم المحاضرة : شمس الدين الكوفي (حياته وشعره):

- **شمس الدين الكوفي (٦٣٢ ــ ٦٧٥ هــ) :**
- **حياته الشخصية والمؤثرات الخاصة فيها :**

شمس الدين الكوفي ، هو محمد بن احمد بن عبيد الله الهاشمي، ولد سنة ٦٢٣ للهجرة، ولم تحدد المصادر مسقط رأسه ، أكان في بغداد أم في الكوفة؟ ويبدو أنه كان من أسرة كريمة محبة للعلم والأدب ، وجّهته منذ الصغر نحو الدرس والتعلم حتى اصبح كما يقول ابن شاكر الكتبي عالما شاعرا ظريفا.

دخل الحياة العملية بجدارة بعد امتلاك ناصية المعرفة والإحاطة بعلوم اللغة العربية وآدابها ، فتولى مهنة التدريس في المدرسة التشتية، وتسلم الخطابة في جامع السلطان، وتبوأ مقعد الوعظ بباب بدر. وكان حريصا على الإسلام والمسلمين ، أفاد الكثيرين في التدريس، وكان يحث الناس في خطبه و مواعظه على التمسك بعروة الدين، ويدعوهم إلى التكاتف والتعاضد والتعاون، ويحذرهم من شر الأعداء وغدرهم ... وقد وقع ما كان يخاف منه ويخشاه ، إذ داهم هولاكو بجيوشه الجرارة العراق ، وضرب العاصمة بغداد سنة ٦٥٦ للهجرة ، واستباح الدور والمساجد والمدارس، ونهب الأموال ، وانتهك الحرمات ، وقتل الناس بلا رحمة ولا شفقة. وتألم شمس الدين الكوفي أشد الألم، واعتصر الحزن قلبه ، وعبر عن مشاعره تجاه هذه الفاجعة الموجعة بقصائد كثيرة ، بكى فيها دولة بني العباس ، وعاصمتهم المنكوبة ، ووصف الفضائح التي ارتكبها هذا الطاغية ، وقد سماه محمد رضا الشبيبي في كتابه عن ابن الفوطي ((شاعر مأساة بغداد)).

وعاش بعد كارثة بغداد قرابة عشرة أعوام ، مفوضا أمره إلى الله ، و منيبا اليه في شعر صوفي رقيق، إلى أن أدركته المنية سنة ٦٧٥ للهجرة .

- **شعره (الأغراض الموضوعية والخصائص الفنية):**

وصل الينا شعر كثير لشمس الدين الكوفي ، وهو متناثر في المصادر الأدبية والتاريخية ، ولا ندري من اين جاءها هذا الشعر ! أأخذته من ديوان له كان موجودة بين أيدي مؤلفيها ، ام من صحف متفرقة كانت عند تلامذته ومحبيه الذين عاشوا بعده ردحا من الزمن ؟!! على كل حال ، فان الشعر المتبقي له يتوزع - في الغالب - بين الرثاء والغزل والوصف .

رثى شمس الدين الكوفي الأهل ، وندب الأحباب ، وأبَّن الأصحاب ، بقصائد تفيض بالدمع والأسى ، وتطفح بالحزن والألم ، وما نظنُّ شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل اليه في بكاء الدولة العباسية التي زهت بنورها قرون عدة ثم خبت بأيام معدودات على ايدي طُغاة بُغاة ، فقد اقتطع بكاءه عليها من فؤاده ، مثل قوله في قصيدة سلك فيها مسلك المتيمين الذين اضناهم فراق الأحبة الأعزة ، وقرَّح جفونهم كثرة البكاء:

عندي لأجل فراقكم آلامُ ... فإلامَ أعذلُ فيكم وألامُ
من كان مثلي للحبيب مفارقاً ... لا تعذلوه فالكلام كُلامُ
نعم المساعد دمعي الجاري على ... خديَّ إلا أنَّه نمامُ
قف في ديار الظاعنين ونادها ... (يا دارُ ما فعلتْ بك الأيامُ)

ويتساءل - على عادة من وقف على الأطلال - عن الراحلين الذين خلفوه يتجرع لوعة الأسى ، ومرارة الحرمان ، وعذاب الوحدة . ويُقسم على نفسه بالبقاء على عهد الهوى والمحبة مهما كلفه ذلك من مشقة وتعب :

وحياتكم إني على عهد الهوى ... باق، ولم يُخفرْ لدي ذمامُ
فدمي حلال إن أردتْ سواكمُ ... والعيشُ بعدكم علي حرامُ

ويسترسل على هذه الشاكلة إلى نهاية القصيدة في البكاء والنحيب دون الالتفات إلى مدينته المضروبة ، وما اصابها من دمار وخراب ، وقتل وتشريد واغتصاب ، ونهب وحرق وانتهاب ، واليك ما قاله في خاتمة القصيدة :

يا ليت شعري كيف حالُ أحبتي ... وبأي أرضٍ خيموا وأقاموا؟
ما لي أنيس غير بيت قاله ... صبٌّ رمتهُ من الفراقِ سهامُ
(والله ما اخترتُ الفراق وإنما ... حكمتْ عليَّ بذلك الأيامُ)

واذا تمنى شمس الدين الكوفي الخلاص من أسر المذلة وقيود المهانة ، فإنه لم يتخلص من أغلال الصنعة في شعره الباكي الحزين ، ولا سيما التجنيس والتطبيق والمقابلة، مثل قوله:

ملابس الصبر نبليها وتبلينا ... ومدة الهجر نفنيها وتفنينا
كنا جميعا وكان الدهرُ يسعدنا ... والكائنات بكأس الأمن تسقينا
فالآن قرت عيون الحاسدين بنا ... بما جرى واشتفت منا أعادينا
فصار يرحمنا من كان يأملنا ... وعاد يبعدنا من كان يغلينا

والغرض الثاني البارز في شعر شمس الدين الكوفي هو الغزل الصوفي وذكر الديار الحجازية والتغني بها وقد حاكى في قسم غير قليل من شعره في هذا الغرض الشاعر العباسي الكبير الشريف الرضي في حجازياته ، وأغلب شعره في هذا الغرض تحلَّى بصفاء الروح وصدق العاطفة وسموها وذكر الامكنة الشريفة المطهرة والبكاء شوقاً اليها كما في مثل قوله :

شهودُ غرامي في هواكَ عدولُ ... سهادٌ ودمعٌ سائلٌ ونحولُ
وشوقي إلى لقياكَ شوقٌ مبرّحٌ ... ولي شرحُ حالٍ في الغرامِ يطولُ

وشارك شمس الدين الكوفي في نظم الموشحات ، وهو متأثر - كما يبدو - بالشاعر الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي الذي ارتحل من الأندلس ، وتنقل بين مصر والشام والحجاز وبغداد وتوفي بدمشق سنة٦٣٨ للهجرة وقبره بالصالحية في مسجد يعرف باسمه في سفح جبل قاسيون.

قال شمس الدين الكوفي في مطلع موشحة له بلغة العاشقين المولهين وبأسلوب غنائي رقيق:

قـــد صـــفا الوقـــت وقـــد رق النســـيمْ   قـــــــمْ بنـــــــا نـــــــربحْ
قـــد خـــلا الســـمتُ ومـــن نهـــوى نـــديمْ   حقنـــــــــا نفـــــــــرحْ
فـــي طـــوى قـــد شـــمت جنـــات النعـــيمْ   أبـــــــــداً تفـــــــــتحْ

والغـرض الثالـث الـذي أحسـن فيـه ، هـو الوصـف ، وقـد وصـلت إلينـا قصـيدة لـه رائيـة جيـدة السـبك، لطيفـة الحبـك ، جميلـة المعـاني والصـور ، تنـاول فيهـا الربيـع ببهجتـه وغضـارته ووشـيه ، وبـديع أزاهيـره البهيـة ورياحينـه النديـة ، إلـى جانـب ثمـاره الشـهية، وأصوات أطياره الشجية ، قال في أولها:

روحُ الزمــــان هـــــو الربيـــــعُ فبكـــــرِّ   وانهـــضْ إلـــى اللـــذاتِ غيـــرَ منكّـــرِ
هـــذا الربيـــعُ يبيـــعُ مـــن لذاتـــه   أصـــنافَ مـــا تهـــوى فـــأين المشـــتري؟
فـــافرحْ بـــه فلفرحـــةٍ بقدومـــه   رفـــلَ الشـــقائق فـــي القبـــاء الأحمـــرِ

ومنها :

والطـــلُّ مـــن فـــوقِ الريـــاضِ كأنَّـــه   درر نثـــرنَ علـــى بســـاطٍ أخضـــرِ
وتـــرى الربـــى بـــالنور بـــين متـــوَّج   ومـــدملجٍ ومخلخـــلٍ ومســـوّرِ
والـــورق بـــين مرجّـــعٍ وموجّـــعٍ   ومفجّـــعٍ ومســـجّع فـــي منبـــرِ

وهكذا كان شمس الدين الكوفي «من مشاهير شعراء عصره»، وشعره يعد صورة صادقة وصفحة واضحة للقرن السابع للهجرة.

اسم المحاضرة : ابن زيلاق الموصلي (حياته وشعره).

ابن زيلاق الموصلي ٦٠٣- ٦٦٠هـــ (حياته وشعره) .

تعـد مدينـة الموصـل واحـدة مـن المـدن المشـهورة فـي عمـر انهـا وحضـارتها ، وقـد صـارت تشـارك بغـداد ودمشـق والقـاهرة وقرطبـة فـي الازدهـار والارتقـاء بمـدارج العلـوم والآداب ، وبـرز فيهـا العشـرات مـن الشـعراء أمثـال مخلـد بـن بكـار ، والخالـديين ، والسـري الرفـاء ، وابـن الـدهان ، وابـن الأردخـل ، وابـن دينيـر ، وابـن الحـلاوي ، وابـن عدلان ، وابن دانيال ... وابن زيلاق الذي نحن بصدد التعريف به ودراسة شعره.

عـاش ابـن زيـلاق فـي النصـف الأول مـن القـرن السـابع للهجـرة ، الـذي يعـد مـن أزهـى الحقـب فـي العلـوم والآداب ، ولا سيما فـي عهـد أبـي الفضـائل بدرالـدين لؤلـؤ بـن عبـدالله الزينـي (ت٦٥٧هـ) الملّقـب بالملـك الـرحيم ، الـذي حكـم الموصـل سـبعة وأربعـين عامـا، وكـان مشـهورة بتقريـب العلمـاء والأدبـاء والاحتفـاء بهـم واكـرامهم ، وممـا تحمـد لـه أنـه طلـب مـن المـؤرخ المشـهور عـز الـدين بـن الأثيـر (ت٦٣٠ه) الإسـراع فـي إنجـاز كتابـه

(الكامل في التاريخ) ليحفظه في مكتبة مدرسته التي أنشأها في الموصل ليقف عليها الدارسون، وكذلك كلف محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤ للهجرة أن يستنسخ له كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني بخط جميل ، وطلب من عمر بن علي بن المبارك الموصلي (ت٦٣١هـ) أن ينسخ له مقامات الحريري مزينة بصور بديعة الألوان .

وابن زيلاق الموصلي هو محيي الدين يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم الهاشمي ، فهو عربي الأصل ، ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ . ولد في الموصل سنة ٦٠٣ للهجرة ، وواصل منذ الصغر دراسته في علوم اللغة العربية وآدابها، ولما استكمل أدوات هذه الدراسة تولّى وظيفة الإنشاء في الدولة ، وكانت كتاباته فائقة الدقة .

وكان غيوراً على مدينته ، وحينما داهمها التتر سنة ٦٦٠ للهجرة تألم كل الألم وخاف عليها، ووقف بجانب ملِكِه الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ في الدفاع عنها. كان قائد التتر يسمى «اسند اغو»، ولما طال حصار الموصل، وساءت أحوال الناس، وتعذرت الأقوات، طلب الملك الصالح الأمان له ولأهل مدينته، وترددت الرسل بينهما، وأخيرا وافق قائد التتر على ذلك، ودخل جنود العدو إلى البلد، ونكثوا بالعهد ، وقبضوا على الملك الصالح وقتلوه وقتلوا ولده علاء الدين ، وعلقوا رأسه على باب الجسر ، ثم قبضوا على مجموعة من الناس وقتلوهم ، وكان أحدهم محيي الدين بن زيلاق قال الصاحب بهاء الدين علي بن عيسى المعروف بالمنشئ الإربلي وكان صديقا له: «جاءت عساكر المغل وحاصرت الموصل ، وأخذ هو وأولاده في شعبان سنة ستين وستمائة فقتلوا أجمع ، فعاد عزه ذلا، وأصبح شماه مضمحلا ، و بكاه الأدب بدمعة الماطر ، وخلت من أنسه ربوع البيان فليس بها صافر ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، وتباً لدنيا تغدر أبدا بالكرام وتسقي بنيها كاسات الحمام ». وهكذا ذهب هذا الأديب شهيدا وهو في السابعة والخمسين من العمر.

شعره :

لم يصل إلينا ديوان ابن زيلاق ، وقد احتفظت المصادر جانبا كبيرا منه ، ولاسيما التذكرة الفخرية في ذيل مرآة الزمان ، و فوات الوفيات و عقود الجمان لابن الشعار الموصلي. كان ابن زيلاق شاعراً مجيداً ، يمتلك طاقة إبداعية عالية ، وقد التقى به المنشئ الإربلي ووقف على شعره واحتار نماذج كثيرة منه، وضمنها تذكرته الفخرية ، قال : « فارس مبارز في حلبات الأدب ، وعالم مبرز في لغة العرب ، بطبع أخذ الطاقة الهواء ، ورقة الماء ، كأنما ظهرت له أسرار القلوب ، فهو يتقرب إليها بكل محبوب ، شعره أحسن من الروض جاده

الغمام ، وأزهى من اللؤلؤ الرطب زانه النظام ، وكلامه يشفي السقام ، ويطفئ الأورام ، وبديهته أسرع من الطرف ، وأحلى من ثمار المنى ، دانية القطف ... وكان بيني وبينه مكاتبات ومراسلات، فلما اجتمعت به وتجاذبنا أطراف الكلام ، وتجارينا في وصف النثر والنظام ، وعاشرته مدة فملأ سمعي ببدائع فرائده التي هي أحسن من الدر في قلائده، وطلبت أن يأذن لي في الرواية عنه ، فاعتذر اعتذار خجل ، وأطرق إطراق وجل.. وأذن بعد جهد شديد ، واعتذر ما عليه مزيد ... وذلك سنة سبع وخمسين وستمائة».

و كان ابن زيلاق معجباً بمدينته الموصل أيما إعجاب، ويحبها من صميم فؤاده ، ويثني عليها، ويتغنى بها ، ويميزها على غيرها من المدن ، ويعدها: الأم الرؤوم التي تحنو على وليدها وترعاه ، فها هو ذا يتناولها في قصيدة - طويلة - ويشيد بها، ويشير إلى لطافة جوها وطيبة ، ويذكر المواقع الجميلة فيها، ولا سيما دير الأعلى المطل على نهر دجلة ، كان الشعراء يلتقون فيه ويتطارحون الشعر ويتناشدون فيه، منها قوله:

ومحاسن الحدباء مشرقة على ... كل البلاد لها الفخار الأفضلُ
يا حبذا الشرف المطل وديرها ... المعالي وطيب فضائه والهيكلُ
ورواقه و بهاؤه وجواره ... والعيش فيه والهواء الأعدلُ
وعبيره يهدي بطيب نسيمه ... وشموله يبقى فدام الشمألُ

وكانت تعجبه مدينة دمشق، ويتردد عليها، ويمكث فيها، ويستأنس بمحاسن أجوائها، ولطائف خمائلها ، وعجائب متنزهاتها ، وأطايب ثمارها و بدائع أصوات حمائمها.. وقدم لها وصفاً جميلا في شعر عذب رقيق ، يستهوي القلوب ، ويشرح الصدور، من ذلك قوله من قصيدة:

أدمشقُ لازالت تجودكِ ديمة ... ينمي بها زهر الرياض ويونقُ
أهوى لك السقيا وإن ضن الحيا ... أغناك عنه ماؤكِ المتدفقُ
أنَّى التفت فجدول متسلسل ... أو جنة مرضية أو جوسقُ

لقد حظيت مدينة دمشق - فيما أرى - أكثر من غيرها من الحواضر الإسلامية بقصائد شعرية ، في وصف مباهجها ومفاتنها وخيراتها. ولم يكن غريبا أن يشارك ابن زيلاق الموصلي قائليها في هذا الوصف ،هو يراها جنة وارفة الضلال ، تنساب في خلالها الجداول ، وتعبق في ربوعها فوائح الأزهار ، وتشدو على أفنان أشجارها الأطيار ، وقد أبدع في تصوير منظر الغصن الراقص بدغدغة النسيم وتصفيق الماء المنساب بخريره الساحر. ومنح ابن زيلاق للحب اهتمامه ، وقدم له زبدة شعره ، في

ثوب نظيف بهيج ، خال من كل ما يشينه أو زري به ، مثل قوله في الحبيب الممتلئ حسنا وبهاء:

يا قمراً أصبحت محاسنه تنهب ألبابنا وتسترقُ
تجمعت فيك للورى فتن على تلاف النفوس تتفقُ
طرف كحيل، ووجنة كسيت حمرة دمعي ، ومبسم يققُ

وأغلب شعره في **الغزل** جاء على هذا النمط ، في صنعة خفيفة ، و موسيقى لطيفة ، يظهر فيه حبيبة بمظهر جذاب ، بهي الطلعة ، فيه جمال وسحر وفتنة ، يبهر الناظرين ويشدهم إليه ، كما في قوله :

بدا لنا من جبينه قمر تضلُّ في ليلِ شعرهِ الفكرُ
أحور يجلو الدجى تبسُّمه أسمر يحلو بذكره السمرُ

وله شعر في **الخمرة** ووصفها ووصف ساقيها وجلّاسها ومن شعره يدعو في أبيات إلى شربها والتمتع بلذتها صباحا ومساء ، من يدي ساق رشيق وسيم المحيا:

اقضِ حق الصبوح قبل الصباح واكسُ راحاتنا بكاسات راحِ
واجلُ جنحَ الدجى بجذوةِ نارٍ قدحتها السقاة بالأقداحِ

وله شعرٌ في **الحكمة** ، ولكنها حكمة سطحية لا عمق فيها ولافلسفة . في مثل قوله عن الدهر وحالاته وتقلب أحواله :

فالدهرُ لا يبقى على حالاتِه فيجورُ أحياناً وطوراً يعدلُ
صبراً فكلُّ ملمةٍ من بعدها فرجٌ وكلُّ عسير أمرٍ يسهلُ

اسم المحاضرة : الشاعر شرف الدين البوصيري (حياته وشعره).

شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (٦٠٨ – ٦٩٥ هـ) حياته وشعره.

اشتهر شاعران بكثرة الشعر وجودته في مدح الرسول محمد ﷺ ، الأول عراقي ، هو الإمام يحيى بن يوسف الصرصري المعروف بشاعر رسول الله المقتول شهيدا بيد التتر سنة ٦٦٦ للهجرة، والثاني مصري هو الإمام البوصيري . .

ولد شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد في مدينة دلاص بصعيد مصر غربي النيل، يوم الثلاثاء مستهل شوال سنة ٦٠٨ للهجرة، وكان أبوه من بوصير ، وهي إحدى القرى القريبة من الفيوم بمصر . ويتفق المؤرخون على انتمائه إلى قبيلة صنهاجة التي عاشت في بلاد المغرب وقد أشار البوصيري إلى ذلك في شعره ، فقال:

فقـــلُ لنـــا مـــن ذا الأديـــبُ الـــذي زاد بـــــــه حبّـــــــي ووسواســـــــي
إن كـــــان مثلـــي مغربيـــاً فمـــا فـــــي صــــحبةِ الأجنـــاسِ مـــن بـــاسِ
وإن يكــــــذِّب نســـــبتي جئتـــــه بجبتـــــــي الصــــــوف ودقّـــــــاسِ

تعلـم القـراءة والكتابـة وحفـظ القـرآن فـي أول حياتـه ، ثـم أقبـل علـى الفقـه والحـديث وأيـام الحـرب والأنسـاب والأخبـار واللغـة والأدب .. و أخـذ مـن كـل ذلـك قسـطا وافـرا ، وجـاء إلـى القـاهرة ، والتحـق بمسـجد الشـيخ عبـد الظـاهر ، وانتفـع بمـا ينعقـد فيـه مـن مجـالس علـم وحلقـات درس ، ويبـدو أنـه أخـذ يعلـم الطلبـة فـي هـذا المسـجد قـراءة القـرآن وتجويـده ، إذ جـاءت فـي ديوانـه قصـيدة يشـكو فيهـا إلـى الملـك الصـالح نجـم الـدين أيـوب بـن الكامـل محمد (ت٦٤٧هـ) حرمـان مسـجده مـن عطايـاه التـي أقرهـا صـدقة لطلبـة المـدارس ، وكانت ثلاثة آلاف دينار:

ليـــت شـــعري مـــا مُقتضـــى حرمـــاني دون غيـــــري والإلـــــفُ الـــــرحمنِ
أترانــــــي لا اســــــتحقُّ لكـــــوني جامعــــاً شــــمل قــــارئي القـــرآنِ
أم لكــــوني فـــي إثـــر كـــل صـــلاة بــــي يــــدعى لدولـــــة الســــلطانِ
وبــــأي الأســـــباب يعطـــــى مكـــــان صـــــدقات الســـلطان دون مكـــــانِ

التحق البوصيري بالوظيفة قبل التحاقه بشيخه المشهور أبي العباس أحمد بن عمر المرسي أحد قادة التصوف في ذلك العصر (ت ٦٨٦هـ)، وتولّى الجبايات بالشرقية، ثم تولى الكتابة في بلبيس ، وهي مدينة بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الذاهب نحو الشام ، وكان عفيفا نزيها، وقد آلمه أخلاق الموظفين الرديئة ، ودناءتهم، وسوء معاملتهم للناس، و أشار إلى ذلك في قصيدة له بلغت تسعة وتسعين بيت ، جاء فيها:

ثكلـــــتُ طوائـــــفَ المســـــتخدمينا فلـــــم أر فـــــيهم رجــــلاً أمينـــــا
فخـــــذ أخبـــــارهم منـــــي شـــــفاهاً وأنظرنــــــــي لأخبــــــر اليقينـــــا
فقـــــد عاشــــرتُهم ولبثـــــتُ فـــــيهم مـــع التجريـــبِ مـــن عمـــري ســـنينا
فكـــم ســـرقوا الغـــلالَ ومـــا عرفنـــا بهـــم ، فكـــأنهم ســـرقوا العيونـــا
ولــــولا ذاك مـــا لبســـوا حريـــراً ولا شـــــربوا خمـــــور الأنــــدرينا

لـم يصـبر علـى مـا كـان يـرى فـي دوائـر الدولـة مـن فاقـدي الذمـة والضـمير مـن أعمـال مقرفـة وأفعـال مذمومـة ، فـاعتزل الوظيفـة وانـزوى فـي بيتـه صـابرا محتسـبا ، واتخـذه مكتبة لتحفيظ القرآن الكريم ليكسب عيشه بشرف وكرامة وقد أشار إلى ذلك بقوله:

مـــا زلـــت أرغـــب أن أكـــون معلمـــاً فيكـــون فضـــلي مكمـــلَ الإعـــلامِ
قـــد صـــار كتّـــابي وبيتـــي مـــن بنـــي غيـــــري وأبنـــــائي كبـــــرج حمـــــامِ

وكان كثير من رجال عصره يزورونه ، وينتفعون من علمه ، مثل أبي الفتح بن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤ هـ) ، وأثير الدين أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) .

وأصيب في أخريات أيامه بمرض عضال أقعده عن الحركة ، وكان قد تجاوز الثمانين من العمر ، وتوفي بمدينة الإسكندرية سنة ٦٩٥ للهجرة ، وله فيها قبر مشهور يتصل به مسجد تدرس فيه العلوم الدينية.

شعره : نظم البوصيري شعرا كثيرا ، صور فيه حياته الخاصة خير تصوير ، وكذلك حياة المجتمع المصري في القرن السابع للهجرة فهو طورا في زي الصوفي المتقشف ، وطورا في ثوب المتطرف ، وبه قصائد في شكوى حاله والتذمر من الموظفين المتلاعبين بمقدرات الناس بمصر في ذلك الحين.

وشعره سهل في روحه وأسلوبه ، ولا سيما الذي **انتقد فيه موظفي الدولة** و مستخدميها ، مثل قصيدته الطويلة التي كشفت فيها الأعمال المريبة التي قام بها عمال أسوان والصعيد ، وأولها:

انظرْ بحقّك في أمر الدواوين ... فالكل قد غيروا وضع الدواوينِ
لم يبقَ شيء على ما كنت تعهده ... إلا تغيّرَ من عال إلى دونِ
الكاتبونَ وليسوا بالكرام فما ... منهم على المال إنسان بمأمونِ

ثم يبين أخلاق هؤلاء الموظفين الفاسدة وجشعهم المفرط ، واستلابهم ما ملكت أيدي الناس ظلما وعدوانا.

وطاعنوا الناس بالأقلام واستلبوا ... منهم بها كل معلوم و مكنونِ
ومن مواش وأطيار وآنيه ... ومن زروع ومكيول وموزونِ

ويحرض السلطان على النهوض لمحاسبتهم بنفسه، وضربهم بلا رحمة ، وتجريدهم من وظائفهم، وتخليص الأمة من شرورهم لأنهم - في نظره - أخطر من قوم هولاكو والإفرنج الذين اجتاحوا الديار من الشرق والغرب :

فقل لسلطان مصر والشام معا ... يا قاهراً غير مخفي البراهينِ
اكتشف بنفسك أسواناً ومن معها ... من الصعيد بلا قوم مساكينِ
وخل غزو هولاكو والفرنس معا ... وانهض بفرسانك الغر الميامينِ
واسلبهم نعمة قد شاطروك بها ... كما يشاطر فلاح الفدادينِ

ونجد مثل هذا الشعر الواضح في لغته ، وطريقة عرضه ، في قصيدته التي رفعها إلى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم، تناول فيها وصف حالته، و أوضاع **أسرته المتكاثرة المعدمة** ، التي تفتقر إلى أبسط مستلزمات الحياة الكرة الكريمة ، قال :

يـــا أيهـــا المـــولى الـــوزير الـــذي أيامــــــــه طائعـــــــــة أمــــــــرهْ
ومــــن لــــه منزلــــه فــــي العلــــى تكــــل عــــن أوصــــافها الفكــــرهْ
إليـــك نشـــكو حالنـــا إننـــا عائلـــة فـــــــي غايـــــــة الكثـــــــرهْ
صـــاموا مـــع النـــاس ولكـــنهم كـــانوا لمـــن يبصـــرهم عبـــرهْ

إن هذا الشعر الهابط فنياً أخذ **طابعاً شعبياً** ، وهو شبيه بطلب استراحم أو استجداء، عرض فيه حالة أطفاله وهم يتضورون جوعا قاسيا ويتلوعون من مرارة الحرمان من النعمة الوفيرة التي يرونها عند الآخرين.

وسخّر البوصيري جانبا من شعره المديح رجال السلطة كي يكسب ودهم وينال رفدهم ، مثل قصيدته الطويلة التي بلغت مئة وسبعة وخمسين بيتا في **مدح الملك المنصور قلاوون** بعد أن بنى مدرسة كبيرة للحديث والفقه وإلى جوارها مستشفى سنة ٦٨٤ للهجرة، مطلعها :

جـــوارك مـــن جـــور الزمـــان يجيـــر وبشـــرك للراجـــي أنـــداك بشـــيرُ

ويتناول في هذه القصيدة شجاعة هذا الملك وبسالته في محاربة الإفرنج ، ويبالغ في وصف سخائه وكثرة عطائه الذي عم الورى :

مكارمــــه لــــم تبــــق فقــــرا ورأيــــه إلــــى بعضــــه أغنــــى الملــــوك فقيــــرُ
محيــــاه طلــــق باســــم ، روض كفــــه أريــــض ، ومــــاء البشــــر منــــه نميــــرُ

وكانــت عنــد البوصــيري نزعــة إلــى التقــوى ، جعلتــه ينصــرف إلــى العبــادة ، ويتعــرف علــى كبــار المتصــوفة ، ويقضــي فريضــة الحــج . وكــان شــعره فــي الحقبــة الأخيــرة مــن حياتــه منصــبا علــى الــدفاع عــن المســلمين ، **ومــديح الرســول** ﷺ ، والاشــادة بفضــائله ، ومعجــزات رســالته البــاهرة . وقــد وصــل الينــا مــن نظمــه فــي هــذا المجــال إحــدى عشــرة قصــيدة وثــلاث مقطوعــات . وتعــد همزيتــه مــن أطــول القصــائد ، إذ بلغــت أربــع مئــة وسبعة وخمسين بيتا ، تناول فيها سيرة الرسول الكريم بتفصيل سردي ، مطلعها:

كيــــف ترقــــي رقيــــك الأنبيــــاءُ يــــا ســــماءً مــــا طاولتهــــا ســــماءُ

ولــه قصــيدة فــي مئتــين وأربعــة أبيــات ســماها (ذخــر المعــاد فــي معارضــة بانــت ســعاد)، مطلعها:

إلــــى متــــى أنــــت باللــــذات مشــــغولُ و أنــــت عــــن كــــل مــــا قــــدمت مســــؤولُ

وتعد قصيدته المشهورة بـ «البُردة»- من اكثر قصائده المدحية انتشاراً، ومطلعها:

أمـــن تـــذكرِ جيـــرانٍ بـــذي ســـلمِ مزجـــتَ دمعـــا جـــرى مـــن مقلـــةٍ بـــدمِ

وقد جعلها الباحثون أفضل قصيدة في المديح ، وتفوقت على بردة كعب ابن زهير من حيث التأثير الفني والموضوعي في الأجيال اللاحقة ، وذلك حين غدت النموذج او المثال الذي ينبغي أن يحتذي به شعراء النبويات من بعده.

وهي التي مكنت البوصيري من ناصية المجد الأدبي ورفعته إلى منزلة الخلود وجعلت منه إمام هذا الفن وزعيما له على مر العصور.

وبهرت هذه القصيدة الشعراء منذ القرن الثامن الهجرة ، وتزاحموا على معارضتها وتشطيرها وتخميسها وتسبيعها ، إلى شرحها والتعليق عليها تاريخيا ولغويا وبلاغيا وعقائديا ، وكذلك ترجمتها إلى لغات كثيرة مثل التركية والفارسية والبربرية واللاتينية والروسية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والألمانية. وتجاوز تأثيرها إلى فن الخط ، حيث تبارى الخطاطون في نسخها ، وتفننوا في نقشها برقائق الذهب. أما المناسبة التي استدعت نظم قصيدة البردة ، فقد ذكرها ابن شاكر الكتبي، وخلاصتها أن البوصيري أصيب بالفالج، ونظم هذه القصيدة وقرأها بين يدي النبي في منامه ، وقد أعجب بها ، والقي عليه بردته ، فانتبه وهو معافى من مرضه. والرواية - على ما يبدو - من نسج الخيال ، إذ ذكر ناقلو هذه القصيدة أن البوصيري لما وصل إلى قوله : «فمبلغ العلم فيه " أنه بشر"» ، توقف ، فقال له النبي : قل يا إمام : «وأنه خير خلق الله كلهم»، فأدرج البوصيري هذا الصراع في قصيدته ، وهذا غير صحيح ، إذ ورد عجز هذا البيت في إحدى قصائد الإمام الصرصري. لقد وصف البوصيري في مدائحه النبوية شمائل الرسول الكريم وخصاله ، وذكر شيئا من سيرته ، وطرفا من مزايا رسالته العظيمة، ونضاله في نشرها، وضمنها نصائح وارشادات، ودعا إلى رياضة النفس، وتهذيبها في صدق نظر، وخلوص نية، من ذلك قوله :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطمِ
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يُصم أو يَصمِ
وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسمِ
كم حسنت لذة للمرء قاتلةً ... من حيث لم يدر أن السُم في الدسمِ
يا أكرم الرسلِ ما لي مَن ألوذُ بهِ ... سواكَ عند حلولِ الحادثِ العَمِمِ

اسم المحاضرة صفي الدين الحلي (حياته وشعره).

صفي الدين الحلي (٦٧٧ – ٧٥٠ هـ) (حياته وشعره) :

مدينة الحلّة التي اسسها المزيدون سنة ٤٩٠ للهجرة حملت مشعل الحضارة الإسلامية ردنا غير يسير من الزمن، وظلت ترقى سلم المجد يوم تخلفت مدن أخرى

وطغى عليها الاضطراب في جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية من جراء تلك الهجمات المدمرة التي شنتها عليها المغول الذين سيطروا على الديار بالعسف والتنكيل ، وقضوا على معالم الحضارة والمدنية، إلا الحلة ، فقد نجت من هذا بأعجوبة ، فظلت شعلتها تتوقد ونور العلم والعرفان فيها يتوهج ، وظهر فيها علماء وأدباء ماهرون، منهم صفي الدين الحلي.

ولد **أبو الفضل صفي الدين عبدالعزيز بن سرايا بن علي الطائي** في مدينة **الحلة يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٧ للهجرة** . ونشأ في **حجر أسرة عربية لها مكانتها المرموقة** ، ومنزلتها الرفيعة ، **وتعلم القراءة والكتابة منذ الصغر** ، و درس علوم اللغة العربية وآدابها في شبابه، **ومارس الفروسية والصيد والألعاب المسلية كالنرد والشطرنج** ، وقد أشاد بمدينته الحلة التي ولد فيها ، وقضى طفولته وشبابه في ربوعها مثل قوله :

من لم ترَ الحلةَ الفيحاءَ مقلتُه ... فإنه في انقضاءِ العمرِ مغبونُ
فالغدرُ طافحةٌ والريحُ نافحةٌ ... والورقُ صادحةٌ والطلُّ موضونُ

وقوله:

ألا بلغْ هُديت سماةُ قومي ... بحلة بابل، عند الورودِ
ألا لا تشغلوا قلباً لبعدي ... فإني كل يوم في مزيدِ

وكان صفي الدين الحلي **معتزاً بأسرته** ، يفتخر بها ، ويذب عنها ، مثل قوله:

وأكسبني قومي وأعيان معشري ... حفاظ المعالي وابتذال الرغائبِ
سراة يقر الحاسدون بفضلهم ... كرام السجايا والعلى والمناسبِ
اذا جلسوا كانوا صدور مجالس ... وإن ركبوا كانوا صدور مواكبِ

وقد وقع في الحلة نزاع شديد على الرئاسة والإمارة، ولا سيما بين أخواله من بني محاسن، وآل أبي الفضل، وقتل خاله عبدالله بن حمزة بن محاسن غيلة وهو في مسجده ، ورثاه بقصيدة حارة ، وحث قومه على اخذ الثأر . ووقعت معركة حامية بين الطرفين قرب بغداد سنة ٧٠١ للهجرة ، عرفت بمعركة «زوراء العراق» ، شارك فيها صفي الدين الحلي ، وأبلى فيها بلاء حسنة ، وأثخن الجراح في خصومه، وأبدى شجاعة نادرة ، ورسالة فائتة ، ونظم **قصيدة حماسية**، قال فيها:

سلي الرماح العوالي عن معالينا
واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

لمـــا ســـعينا فمـــا رقـــت عزائمنـــا عمـــا نـــروم ولا خابـــت مســـاعينا
يـــا يـــوم وقعـــة زوراء العـــراق وقـــد دنّـــا الأعـــادي كمـــا كـــانوا يـــدينونا
انـــا لقـــوم أبـــت أخلاقنـــا شـــرفاً أن نبتـــدي بـــالأذى مـــن لـــيس يؤذينـــا
بـــيض صـــنائعنا، ســـود وقائعنـــا خضـــر مرابعنـــا، حمـــر مواضـــينا

إنـه تـألق فـي هـذه الأبيـات أيمـا تـألق، ولاسـيما فـي البيـت الأخيـر، حيـث التقسـيم الجميـل والمقابلـة اللطيفـة ، وتكـاد تكـون القصـيدة كلهـا بهـذه النبـرة الحماسـية فخـرا واعتـزازا بقومه الميامين.

آثاره :

كان صفي الدين الحلي عالماً أديباً، وقد ترك تأليف قيمة في الأدب ، واللغة، منها:

١- **العاطل الحالي والمرخص الغالي :** يبحث في فنون الشعر المستحدثة (الزجل ، المواليا ، الكان و كان ، القوما) .

٢ - النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية : طبع بالمطبعة العلمية في مصر سنة ١٣١٩ هـ.

٣- أغلاطي : وهو معجم بالأغلاط اللغوية الشائعة في عصره .

٤ - الدر النفيس في أجناس التجنيس .

٥ - كتاب الصيد بالندقية أو الخدمة الجلية .

٦- المثالث والثاني في المعالي والمعاني : وهو مختار من شعره.

٧- الميزان في علم الأدوار والأوزان: وهو يبحث في الموسيقى والاتها.

٨- رسائله : وصل إلينا منها أربع رسائل ، هي : رسالة الدار عن محاورات الفار، والرسالة المهملة ، والرسالة التوأمية، وحل المنظوم .

٩- ديوان شعره: يحتوي على أكثر من عشرة آلاف بيت في اثنى عشر بابا ، في كل باب يوجد فصلان أو أكثر ، وجملة الفصول ثلاثون ، والأبواب هي: الفخر والحماسة، المديح، الطرديات ، الوصف ، الإخوانيات ، المراثي، الغزل، الخمريات ووصف الأزهار ، الشكوى والعتاب ، الأستهداء والاعتذار، الألغاز ، الملح والأهاجي، الأدب والزهد.

وألحق بالديوان « الكافية البديعية في المدائح النبوية» وهي في ١٤٥ بيتا على وزن بردة البوصيري وقافيتها ، وديوانه «درر النحور في امتلاح الملك المنصور» .

شعره (الاغراض الشعرية والخصائص الفنية) :

اشتهر صفي الدين الحلي بالشعر أكثر من اشتهاره بالنثر مع إنه قد برز في كليهما. وعدّه النقاد والباحثون أشعر شعراء عصره لما امتاز به شعرها من خصائص وسمات على صعيدي المعاني والألفاظ .

ويعد باب **المديح** من أوسع الأبواب في ديوانه. وقد بدأه بمدح الر سول محمد ﷺ - وهو يتسم بالجودة والصدق في التعبير، من ذلك قوله، وهو في المدينة المنورة.

بكـــم يهتـــدي، يـــا نبـــي الهـــدى ولـــيٌّ إلـــى حـــبكم ينتســـبْ
بـــه يكســـبُ الأجـــرَ فـــي بعثـــهِ ويخلـــص مـــن هـــول مـــا يكتســـبْ
وقـــد أمَّ نحـــوك مستشـــفعاً إلـــى اللهِ ممـــا اليـــه نُســـبْ
ســـلِ الله يجعـــلْ لـــه مخرجـــاً ويرزقـــه مـــن حيـــث لا يحتســـبْ

ونرى صفي الدين يخصص قصائد كثيرة **للغزل** إلى جانب الشعر الذي جعله بين يدي المديح، وهو يعف في بعضها ويسف في بعضها الآخر ، ويصبح حليف نزوة وأسير شهوة، مقلدا الشعراء المجان المتهتكين ، وقد عارض ابن حجاج في بعض قصائده الفاضحة، وأظهر فيها مفاتن الجسد بشكل صارخ ومبتذل، ونورة هنا أبيات من غزله العفيف الرقيق:

يـــا ضـــعيف الجفـــون أضـــعفت قلبـــاً كـــان قبـــل الهـــوى قويـــاً مليـــا
لا تحـــارب بناظريـــك فـــؤادي فضـــعيفان يغلبـــان قويـــا

وهذان البيتان ينمان على سلامة طبع وجمال أسلوب، ومثلهما الأبيات الاتية، وما ورد فيهما من حوار لطيف مع الطبيب الذي جس نبضه ، وشخص داءه، وعرف بلاءه:

ظـــن قـــومي أن الأســـاة ســـتّبري داء وجـــدي، أو العـــلاج يُفيـــدُ
فـــأتوا بالطبيـــب، وهـــو لعمـــري فـــي ذوي فنـــهِ مجيـــدٌ مجيـــدُ
مـــذ رأى علتـــي وقـــد لاح للمـــو ت عليهـــا أدلـــة وشـــهودُ
جـــسَّ نبضـــي وقـــال: مـــا أنـــت شـــاك؟ قلـــت نـــاراً لـــم يطفهـــا التبريـــدُ

ومن الاغراض الشعرية التي جاءت في شعر صفي الدين الحلي **الوصف** ،وله ذوق جميل في ذلك ، إذ نراه يجيد وصف الحدائق والمروج الخضراء والحيوانات اللطيفة والطيور وكل ما يبعث في الطبيعة من بهجة وفرح في مثل قوله يرحب بقدوم فصل الربيع :

ورد الربيعُ فمرحباً بـــورودهِ وبنور بهجتهِ ، ونـــور ورودهِ
وبحسنِ منظرهِ وطيبِ نسـيمهِ وأنيقِ ملبســهِ ووشـــي برودهِ

ومن الاغراض الشعرية التي جاءت في شعر الشاعر صفي الدين الحلي **الاخوانيات** وهي القصائد التي تقال في الاصدقاء والخلان ويبين فيها الشاعر مودته الاخوية لهؤلاء الاصدقاء

والاحبة الذين قضى معهم أجمل الأيام والذكريات ولا سيما مع صفي الدين الحلي الذي شعر بالغربة والحنين وبكى الفراق والحنين لهؤلاء بعد أن ودعهم وارتحل عنهم في غيبة طويلة بعد رحلاته إلى الشام وماردين ومصر والحجاز ، ومن ذلك قوله :

بكيتُ لفقدِ الأربعِ الخضرِ منـــكمُ علــى الرملةِ الفيحاءِ بالأربعِ الحُمرِ

فكيفَ بقي إنسانُ عيني وقد مضى علـــى ذلك الإنسانِ حين من الدهرِ

ومن الاغراض الشعرية التي نظم فيها شاعرنا صفي الدين الحلي **الرثاء** ، وأجاد فيه وقد احتوى ديوانه على الكثير من القصائد والمقطوعات في هذا الغرض ، منه ما رثى به الملوك والأمراء ومنها ما رثى بها الأقارب والاصدقاء . ومن ذلك قوله يرثي أخاه عبد الله سنة ست وعشرين وسبعمائة :

بكيتُ دماً لو كان سكبُ الدِما يغني وضاعفتُ حزني لو شفى كمداً حـزني

وأعلمُ أنَّ الحزنَ والموتَ واحـــدٌ عليّ، فذا يضني القلــوبَ وذا يفــني

ولم يقتصر غرض الرثاء في شعر صفي الدين الحلي على القصيد بنظام الشطرين فقط وإنما جاء هذا الغرض في شعر الحلي في أشكال أخرى من النظم منها المخمسات ، وله يخمّس قصيدة ابن زيدون في رثاء الأديب المؤرخ الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة :

كان الزمان بلقياكم يمـــنينا وحـــادثُ الدهرِ بالتفــريقِ يُثينا

فعندما صدقتْ فيكم أمانــينا (أضــحى التنائي بديلاً عن تدانينا

ونابَ عن طيبِ لقيانا تجافينا)

إن شعره على العموم يتراوح بين مجموعة صادرة عن فطرة وطبع سليم، وأخرى غلب عليها التكلف والصنعة، ويبدو أنه تابع في المجموعة الثانية أولئك الذين قيدوا أنفسهم بالصور البيانية والبدي حمية ، وأراد أن يتسوق عليهم ، فجنس واقتبس وضمن وقابل ونشر وطوي وقسم، وتعمد التشبيه والاستعارة والكناية ، وتلاعب بالحروف، فأهمل وأعجم ، والتزم ما لا يلزم ، وبني أحيانا على لفظ واحد يردده في روي كل بيت مع اختلاف المعني . وابتدع الموشح المضمنة مثل قوله:

وحــقِ الهــوى مــا حُلــتُ يومــاً عــن الهــوى ولكــن نجمــي فــي المحبــة قــد هــوى

ومــا كنــت أرجــو وصــل مــن قتلتــي نــوى وأفنــي فــؤادي بالقطيعــة والنــوى

و ليس في الهوى عجــبُ إن أصابني النصبُ

حامـــــل الهـــــوى تعـــــبُ يســـــتفزه الطـــــربُ

أما شعره الذي سلم من الصنعة والتكلف فيتميز برقة الألفاظ وسهولتها ووضوح المعاني وصحتها، وقد أشار إليه بقوله:

لـــــــيس البلاغـــــــة معنـــــــى فيـــــــه الكـــــــلام يطـــــــولُ
بـــــل صـــــوغُ معنـــــى كثيـــــر يحويـــــه لفـــــظ قليـــــلُ
فالفضـــــل فـــــي حســـــن لفـــــظ يقـــــل فيـــــه الفضـــــولُ
يظنـــــه النـــــاس ســـــهلاً ومـــــا إليـــــه ســـــبيلُ

اسم المحاضرة : فن الخطابة في نثر العصور المتأخرة .

الفنون النثرية:

وصل إلينا من العصر الوسيط نثر مستفيض ، مثل الخطب والرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية والمقامات والمناظرات والحكايات والاجازات والتقاريظ والكتابات العلمية والأدبية ... وأغلب هذه الفنون كانت معروفة قبل هذا العصر ، وقد تضاعف غير قليل منها ، وسنسلط الضوء في الصفحات الآتية على أبرز هذه الفنون.

الخطابة:

الخطبة شبيهة بالمقالة الرصينة في موضوع معين تلقي على جمهور من السامعين، ومن سماتها ودعائمها التي تقوم عليها : **الارتجال ، وحسن التصوير ، وسلامة المنطق ، وعمومية المناسبة و الموضوع ، وقوة التعبير عن المعاني ، مع ترتيبها ، مزودة بأدلتها ؛ لتكون مؤثرة ومقنعة.**

وقد فقدت الخطابة - في الغالب - عنصرا هاماً من أفضل عناصرها ، وهو الارتجال ، وكان الكثيرون من الخطباء يستظهرون حطب السابقين و يرددونه على السامعين ، ولا سيما خطب عبدالرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة (ت٣٧٤هـ). وكانت تمتاز بالقصر ويغلب عليها السجع، وتتناول في معظمها الموضوعات الدينية.

ولا يعني هذا أن الساحة خلت من الخطباء المجيدين، الذين يمتلكون القدرة على الاقناع والتأثير في النفوس ، بلغة رصينة ، بعيدة عن الخطأ واللحن ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة لم تستطع أن تغطي الممالك الاسلامية و تسمع صوتها إلى الناس جميعا .

وكانت الخطب تلقى في **مناسبات كثيرة** ، منها الاستنفار لصد غارة ، أو رد عدوان ، أو نجدة إخوان ، ومنها كانت تلقى على المنابر أيام الجمع والأعياد والمنا مديات الدينية الأخرى ، وهي «تعتمد على إثارة العاطفة لتحبب إليها الخير ، وتنفرها من الشر وتوجهها إلى تقوى الله وحبه وخشيته، وقلوب السامعين متفتحة للتأثر بالخطب الدينية ولأنها تضليهم بالخالق سبحانه و تعالى وتعلو بهم عن الأرض إلى السماء ، و تبصرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، فالخطيب تكلم من قبل الله ، و الموضوع ديني روحي، وثمرة الخطبة سعادة الفرد والمجتمع ، وتمجيد الله وطاعته وابتغاء الخير».

وكانت الخطبة تلقى على **ضربين : الاول تلقى مشافهة**، بعد أن يقف الخطيب على منبر أو منصة أو فوق مرتفع من الأرض ، مصحوبة كلامه بالحركات والسكنات والإشارات والايماءات التي جرى على اصطناعها بقصد التأثير على مشاعر الجماهير(الخطب الحربية ، والخطب الدينية). **أما الآخر فهو أن تكتب الخطبة كتابة،** وذلك كالخطب التي دأب علماء الدين على ذكرها بين يدي المؤلفات و المصنفات الأصولية والفقهية و التفسيرية وغير ذلك مما كانوا يصنعونه في مختلف العلوم الشرعية وكالتي كانت تكتب في شأن زواج أمير أو ابن سلطان من إحدى بنات الخلفاء أو الأمراء أو السلاطين، مثل خطبة الصداق التي كتبها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر للملك السعيد بركة ابن السلطان الملاك الظاهر بيبرس البُندقداري على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي الذي أضحى من بعد سلطانة ، منها قوله:

((وبعد ، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في تفصيله ، لما استصلح البدر شيئا من المنازل لنزوله ، ولا الغيث شيئا من الرياض لهطوله . ولا الذكر الحكيم لسانا من الألسنة لترتيله ، ولا الجوهر الثمين شيئا من التيجان لحلوله ، لكن ليتشرف بيت يحل به القمر ، ونبت يزوره المطر ، ولسان يتعوذ بالآيات والسور ، و نثار يتجمل باللآلئ والدرر ، ولذلك تجملت برسول الله - ﷺ - أصهاره وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه ، وتزوج - ﷺ - منهم، وتمت لهم مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضي عنه)).

وكانت الخطب آنذاك بصورة عامة متشابهة تقريبا في : **التزام السجع، واستخدام فنون البديع ، كالجناس، والطباق، والمقابلة، والترصيع، " والتضمين، والاقتباس من القران الكريم والحديث النبوى الشرف وكلام الفقهاء والمفسرين** كما امتازت **باختيار الألفاظ والعبارات ، والوحدة الوثيقة التي تربط أجزاءها ومعانيها في موضوع واحد .** واليك خطبة لعبد السلام بن أحمد بن غانم الأنصاري (ت ٦٧٨هـ) ،

وقد وازن بين فقراتها ، وجعلها منتهية بحرف النون المطلق ، وضمنها شهرة جعل الروي فيه حرف اللون المطلق أيضا :

(الحمد لله الذي ملأ الوجود جودة وإحسانا ، وأسبغ على كل موجود من سوابغ نعمه سرآ وإعلانا ، وجعل السجود لقربان حضرته قربانا . وأوفر القلوب بتحقيق شهوده اتفاقا ، نوّر بصائر او لبائه ، فشاهدوه بين اليقين عيانا ، كلما جليت عليهم صفاته هاموا اليها ولهانا، (واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) زفت عليهم عروس محبته ، فجعلوا النفوس عليها سكرانا ، واستبدلوا من الملبوس أشجانا وأحزانا ، ونثروا الدموع على الخدود فسالت غدرانا ، فلما وثقوا العقود وحفظوا العهود أعطوا من الصدود أمانا ، فلو رأيتهم وقد جن عليهم الليل لحسبتهم في ثياب الخشوع رهبانا ، وفي مصابرة الولوع فرسانا ، صفوا على سرير الصفا إخوانا ، لا تجد فيهم خوانا، وأصبحوا في خلوة الوفاء نُدمانا ، لا تعرف فيهم نَدمانا . نصبوا للنصب أشباحهم ، ورفعوا للرعب نواحهم ، وخفضوا من الرهب جباههم ، وفيهم نائح باك ، وصائح شاك (يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا)، قد تجلى لهم الجليل ، ونادى يا جبريل أقم فلانا، وأقم فلانا :

وقل : يا طالبي وصلي هلموا	فإنا لا نخيب من أتانا
حمانا للذي يهوى رحيب	إذا ما جاءنا يبغي لقانا
يراق له شراب من وصال	يمازجه رضاب من رضانا

وتجدر الإشارة إلى أن المقدمة الافتتاحية التي يمهد . بها مؤلف لكتابه ، يبين فيها غرضه من تأليفه و فائدته ، تسمى «خطبة » ، وقد ذكر ***القلقشندي*** أن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ، ونوع من أنواعها ، يحتاج الكتاب إليها ، في صدور بعض المكاتبات ، وفي المبيعات ، والعهود ، والتقاليد ، و التفاوض ، وكبار التواقيع ، والمراسيم ، والمناشير .(أنواع مستحدثة من الخطب في هذا العصر وهي من الخطب المكتوبة).

القلقشندي في كتابه : (صبح الاعشى في صناعة الإنشا)...في أنواع النثر وسماته وخصائصه وفنونه .

اسم المحاضرة : المقامات والمفاخرات في نثر العصور المتأخرة .

المقامات:

فن رفيع نشأ في العصر العباسي ، ويعد بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨ هـ) رائد إنشائها ، ثم تبعه الكثيرون أمثال أبي القاسم الحريري (ت٥١٦هـ)، والإمام الزمخشري (ت ٥٣٨ه) ... ولما دالت دولة بني العباس استمر الكتاب في تدبيجها ، واستخدموها في أغراض كثيرة مثل المديح والهجاء والرثاء والوصف ... وقد خرجت في الغالب عن الرواية واكتفت بالحكاية.

ومن أشهر كتاب المقامات في هذا العصر ظهير الدين علي بن محمد المعروف بابن الكازروني (ت ٦٩٧ه) ، وأبو الندى معد بن نصر الله بن رجب ابن أبي الفتح بن محسن المعروف بابن الصيقل الجزري البغدادي (٧٠١هـ) وشمس الدين محمد بن الحسن الصائغ الدمشقي (ت ٧٢٢ه) ، وأبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧٢٥هـ) ، و زين الدين عمر بن الوردي (ت ٧٤٩هـ) ، و شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت٨٢١هـ) وتقي الدين بن حجة الحموي (ت٨٣٧هـ)، و جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) ... وننقل هنا جزء من مقامة ابن الكاز روني المعروفة بـ: «**مقامة في قواء بغداد** في الدولة العباسية ، التي جاءت وصفا دقيقة للوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله ودخول الجيوش النثرية المتعطشة للدم دار الخلافة ، قال :

خطر ببالي في بعض الليالي ، أن ألبس سربالي البالي ، وأفارق أشبالي وأجعل الله اتكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث إلى الزوراء فرأيت في المنام قائلا أسم نداءه ولا أتحقق مرآه ، ويملأ سمعي صوته وإن كنت لا أراه ، يقول : يا عبد الله (فإذا عزمت فتوكل على الله) .

فنهض بي عزمي لإجابة الداعي ، وقعد أطفالي ينتحبون اوداعي ، وأنا أعد للرحلة زادي ، وأما بالماء لبعد المسافة مزادي، فلما اقتعدت راحلتي وأنضيتها في قطع من مسافتي ، و افيها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، و محنة جاثمة ، وقصورا خاوية ، وعراصا باكية ، قد رحل عنها ساكنها ، وبان عنها قاطنها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد ، وقصورها المشيدة مهدومة ، و نعماؤها مسلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها باكية بلسان الحال على سكانها ، عظام العظام بالية ، تسفي عليها الرياح الساقية ، (فهل ترى لهم من باقية) : فوقفت أبكيها، وأندب ربوعها ، و من كان فيها :

وأندب أطلالها تارة و أبكي على فرقة الظاعنينا
فلو ذهبت مقالة بالبكاء لفرط الغرام لكنا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، و هو يذري دمعه لسماع ارتحالي .. فقلت له : ما جلاؤك ، فتمد اعجبني حالك . فقال : اليك عني، واذهب لسبيلك ودعني . فإني أتمتع بالبكاء ، وأسح الدمع على هذه الأصداء ، وأقيم مأتم العزاء . فلو رأيت من هذه البلدة

مـا رأيـت ، لأذرفـت معـي الـدمع ، ولأسـمع بكـاؤك الجمـع . فتملـت لـه : حـدثني كـأني أشـاهد ، وصـف لـي مـا كـان بنهـا مـن المشـاهد . فقـال : يتصـدع قلبـك، ويطيـر لسـماع ذلـك لبـك . وإذا شـئت فـأتبعني، وحـدث عـن نفسـك ولا تـرو عنـي ، فأسـرعت خلفـه أقـص أثـره ، حتـى وقـف بـي علـى عبـرة مـا اعتبـره ، فرأيـت حـرم الخليفـة مهانـا ، بعـد أن كـان كعبـة و أمانة، فطاف بي ببعض قصوره ، واعتذر عن الباقي لقصوره).

المفاخرات :

المفـاخرة لـون رفيـع مـن الأدب ، تحبـب إلـى النفـوس ، **تجـري فيـه محـاورة لطيفـة وبأسـلوب جميـل بـين أثنـين أو أكثـر فـي موضـوع مـن الموضـوعات يـتكلم كـل واحـد مـنهم عـن نفسـه ، مبينـة إحـدى محاسـنه وخصوصـياته** ، ويشـيد بهـا ، ويصـفها وصـفا جمـيلا مـؤثرا ، **هدفـه الفخـر والبـروز والتغلـب علـى خصـمه** ، وكثيـرا مـا يثنـي بـذكر بعـض معايـب خصـمه ويبرزهـا للعيـون مهتوكـة مفضـوحة ، و قـد يقلـب إحـدى محاسـن خصـمه عيبـا . ومـن هنـا وهنـا تثـور الحماسـة ، وينـدلع . لهيـب المفـاخرة بـين المتخاصـمين ، ويـرد الآخـر بـدوره فيشـيد بخصوصـية أخـرى مـن خصوصـياته ، ويبـالغ فـي وصـفها و ابـراز محاسـنها ، ويجمـل فـي تصـويرها ، وينعن علـى زميلـه عيـب آخـر مـن عيوبـه وهلـم جـرا ... حتـى تنتهـي المفـاخرة والحـوار بمصـالحة بـين الطـرفين ، أو بتغلب طرف على آخر .

وتعتمـد المفـاخرة علـى **<u>الخيـال الخصـب ، وإجـادة فـي التصـوير ، وبراعـة فـي إتيـان الصـور مـن البيـان وفنـون البـديع</u>** ، وقـد أحسـن الكثيـرون مـن الادبـاء والمصـنفين والكتّـاب فـي هـذا العصـر فـي تنـاول هـذه الظـاهرة الأدبيـة الممتعـة منهم **ضـياء الـدين ابـن الاثيـر (ت٦٣٧هـ) فـي <u>رسـالة الازهـار</u>** التـي تضـم مفـاخرة بـين الـورد والنـرجس والاقحوان والشقيق والبنفسج وأيهنَّ أجمل وأقرب إلى الإنسان.

ومنهم **زين الدين بن عمر الوردي في المفاخرة بين <u>السيف والقلم</u> ومنها :**

- قال السيف : أنا ذو الصيت والصوت ، أنا من مارجٍ من نار ، والقلم من صلصالٍ كالفخار.
- قال القلم : صه ، فصاحب السيفِ بلا سعادةٍ كالأعزل.
- قال السيف: مه، فقلم البليغ بغير حظٍ مغزل.
- قال القلم : أنا أزكى وأطهر .
- قـال السـيف : أنـا أبهـى وأبهـر . فـتلا ذو القلـم لقلمـه : (إنـا أعطينـاك الكـوثر). فـتلا صـاحب السـيف لسـيفه : (فصـلِّ لربـك وانحـر). . فـتلا ذو القلـم لقلمـه : (إنَّ شانئك هو الأبتر).

اسم المحاضرة : الصفدي (حياته ونثره).

صلاح الدين الصفدي(٦٩٦ ــ ٧٦٤ هـ) :

هو صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله ولد في صفد سنة ٦٩٦ للهجرة ، كان والده ثرياً من أمراء المماليك ، فعاش الابن في رغد العيش ونعيمه.

تعلم القراءة والكتابة في مسقط رأسه، وكانت له موهبة عظيمة وبراعة فائقة في الرسم والخط. ثم رحل في طلب العلم إلى دمشق والقاهرة وقرأ على العلماء المشهورين والأدباء المعروفين أمثال : شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي (ت ٧٢٥هـ)، أخذ عنه الأدب، وكذلك الشاعر المشهور ابن نباتة المصري (ت٧٦٨) ، ولازم فتح الدين بن سيد الناس اليعمري (ت٧٣٤هـ) وأخذ عنه المغازي والسير ، وأخذ النحو عن أبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، ودرس الفقه على القاضي بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣هـ) والحافظ يوسف بن عبدالرحمن المزي (ت٧٤٢هـ) وتقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ)، وأخذ التاريخ عن أبي عبدالله شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ) تولى كتابة الدرج في ديوان الإنشاء بصفد ، ثم انتقل إلى القاهرة للعمل نفسه ، وديوان الانشاء آنذاك يتألف من كاتب السر ، وكاتب الست الذي يتولى التوقيع على الكتب الواردة في غياب كاتب السر . وكاتب الدرج هو الذي يتولى تحرير الكتب .

وكان رجلا حسن العشرة ، ذا مروءة ، محببة إلى كل أصدقائه وزملائه ورؤسائه، يجلس في جامع دمشق للإفادة والتدريس إلى جانب اشتغاله في الوظيفة . ، وحينما كبر ثقل سمعه ، وتوفي بمرض الطاعون في دمشق ، ليلة العاشر من شوال سنة ٧٦٤ للهجرة .

آثاره :

برع الصفدي في التصنيف والتأليف ، قيل : إن مؤلفاته بلغت مئتين من المجلدات ، وقال ابن تغري بردي: ((كان إماما بارعا كاتبا ناظما ناثرا شاعرا ، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس ، وهو من المكثرين ، وله مصنفات كثيرة في التاريخ والأدب والبديع وغير ذلك)). وقال ابن العماد الحنبلي : «وقفت على ترجمة كتبها الصفدي لنفسه نحو كراسين ، ذكر فيها أحواله ومشايخه وأسماء مصنفاته ، وهي نحو الخمسين مصنفة منها ما أكمله ، ومنها مالم يكمله» . ومن كتبه المطبوعة :

١- **الأرب من غيث الأدب :** وهو شرح موجز لقصيدة الطغرائي اللامية .

٢- **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب .**

٣- تشنيف السمع بانسكاب الدمع .

٤- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون.

٥ - توشيع التوشيح .

٦- جنان الجناس .

٧- وصف الزلال في وصف الهلال .

٨. قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة .

٩- الغيث المسجم في شرح لامية العجم .

١٠ - لوعة الشاكي ودمعة الباكي .

١١ - نصرة الثائر على المثل السائر .

١٢ - نكت الهميان في نكت العميان .

١٣ - الوافي بالوفيات . ويعد من أكبر كتب التراجم في ثلاثين مجلدا جمع فيه تراجم الأعيان ، ونجباء الزمان ، ممن وقع عليه اختياره ، فلا يغادر أحدا من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء والأولياء والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء، و الحكماء وأصحاب النحل والبدع، والآراء وأعيان كل فن ؛ ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره.

ومن كتبه الاخرى التي حُققت مؤخراً ، فهي : أعيان العصر وأعوان النصر، جعله لتراجم مشاهير القرن الثامن للهجرة إلى أيامه . اختراع الخراع ، وهو شرح مفصل لأشعار وتعليقات في علوم اللغة والعروض . ألحان السواجع من المبادي و المراجع.

ومن كتبه المخطوطة التذكرة الصفدية ، وهو كتاب كبير جدة فيه كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية وكثير أيضا من تراجم الشعراء والأدباء .

ومن آثاره الاخرى : تصحيح التصحيف. وتحرير التحريف . جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة . الحسن الصريح في مئة مليح . ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء. رصد الزلال في وصف الخال . رموز الشجرة النعمانية. الشعور بالعور . طرد السبع عن سرد السبع . الحرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي . عبرة اللبيب بعشرة الكئيب . فض الختام عن التورية والاستخدام . كشف الحال في وصف الخال. كشف السر المبهم في لزوم مالا يلزم . منشآت الصفدي المنتقى من المجاراة والمجازاة . المحاورة الصلاحية في الأحاجي الاصطلاحية . الهول المعجب في القول الموجب.

نثره وأسلوبه :

كان الصفدي أديبا بارعا ، وشاعرا مجيدا ، وناقدا ذكيا ، ومؤرخا دقيقا .. وكان كثير التأليف في مختلف المعارف ، لم يقف قلمه عن الكتابة طوال حياته ، قدم فيها ذخيرة طيبة ، نافعة للأجيال ، لازالت الدراسات الأكاديمية تعنى بها وتضعها بين أيدي القراء .

وقد جاءت كتاباته على نمطين مختلفين ، الأول مرسل لا قيود فيه للصنعة والثاني متكلف يغلب عليه السجع والبديع ، ومثال من النوع الأول قوله معلقا على بيت الطغرائي :

(فيم الإقامة بالزوراء لاسكني بها، ولا ناقتي فيها ولا جملي)

والزوراء : بغداد ، سميت بذلك لانحراف قبلتها ، وفي بغداد لغات : بغداد ، بذال معجمة أخيرة ، وبذالين معجمتين و بدالين مهملتين ، وبغدان بنون بدل الدال الأخيرة. ومن أسمائها دار السلام ، وفي تسميتها بذلك قولان ، أحدهما أن السلام اسم لدجلة ، والآخر أنه يسلم فيها على الخلفاء ويقال : إن اسمها بك دار ، ومعني بك بالتركية الرب ، ودار العدل فإنهم قالوا : الله العادل ، و يقال غير ذلك . وهي بلدة أحدثها المنصور من بني العباس سنة أربعين ومائة ، ونزلها في سنة ست وأربعين ، وفي سنة تسعة وأربعين تم جميع بنائها . وهي بغداد القديمة التي بالجانب الغربي على دجلة وهي بين الفرات ودجلة كما جاء في الحديث : وبغداد الثانية هي الجديدة التي في الجانب الشرقي وفيها دور الخلفاء . وبغداد عبارة عن سبع مجلات لا تفتقر محلة منها إلى غيرها على شاطي دجلة من الجانب الشرقي . فالأولى الرصافة ، بناها المهدي بن المنصور حين ضاقت بالرعية والجند سنة إحدى وخمسين ، وهي مدينة مسورة ، والثانية مشهد أبي حنيفة مسورة ، والثالثة جامع السلطان غير مسوَّرة ، والرابعة مدينة المنصور في الجانب الغربي وتسمى باب البصرة ، وكان بها ثلاثون ألف مسجد وخمسة آلاف حمام . والخامسة مشهد موسى بن جعفر مسورة والسادسة دار القز مسورة يقال : إن المنصور سأل راهبة كان في صومعة في مكان بغداد عندما أراد أن يختطها : أريد أن أبني ههنا مدينة فقال إنما يبنيها ملك يقال له أبو الدوانيق ، فضحك وقال : أنا هو . وقيل : إنما قال له يبنيها ملاك يقال له مقلاص ، فقال له : أنا كنت أدعى بذلك فاختطها ، وكان المنصور على جلالته يحاسب على الدوافق ، فسمي الدوانيقي».

بهذا الأسلوب السردي الواضح سار الصفدي في كثير من تأليفه. أما النمط الثاني الذي عمد فيه إلى الصنعة فنجده في مقدمات كتبه وفي رسائله و مقاماته ، من ذلك قوله في مقامته «لوعة الشاكي ودمعة الباكي» :

خرجت في بعض الأيام متفرجا وسارحا ، وجائلا بطرف الرياض وسائحا وصحبني صديق لي في المحبة صادق، ورفيق لي فيما أروم موافق ، قد ملك كل حسن ولطافة ، وجمع كل حذق و ظرافة ، ينتصب لخدمتي لا يملُّ ولا يسأم ، ويتعصب في مرضاتي لا يكل ولا يندم ، ويجتهد في موافقتي لا يمنُّ ولا ينم ، ويحسن موافقتي فلا يذمُّ ولا أذم).

ومن مقدمات كتبه نأخذ ما قاله في افتتاحية كتابه توشيع التوشيح :

((أما بعد حمد الله تعالى على نعم وشَّع برودها ، ووشح بالجواهر قدودها، ووشى رياضها لما طبع نقوشها ونقودها ، وصلاته على سيدنا محمد الصادق وعده ، السامق مجده ، السابق إلى حوض يسر المؤمن ورده ، على آله وأصحابه أولي المفاخر ، والجود الذي أخجل البحار الزواخر، والسادة الذين بذوا الأوائل والأواخر ، وسلامه إلى يوم الدين . فاني نظرت يوما فيما اتفق يوم لي نظمه من الموشحات ، ونسجته د ن برودها الموشعات ، فوجدتها جملة جميلة ، وعدة تضاهي زواهر السماء ، و تباهي أزاهر الخميلة ، إلا إنها في التذكرة ضائعة ، ونفحاتها في اماكن متفرقة ضائعة فآثرت جمعها في ديوان يضم شملها الشتيت ، وسلك يفيد الملتقط جوهرها ولا يفيت . مع علمي أنها ليست مما يجمع ، ولا من النظم الذي يسمع ، ولكن كل حيوان يعجبه طنين رأسه ، ويقع في هؤلاء الإعجاب بنفسه على أم رأسه)).

لقد أحب الصفدي الصنعة ، ومدح البديع ، وأطرى عليه ، ولا سيما الجناس، مثل قوله في مستهل كتابه جنان الجناس : ((وبعد ، فلما كان فن البديع في الزمن المتأخر أحسن بالدعوة وأوضح لمعة وأملح طلعة واكثر رواية وسعة ، به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعة ، وإذا كان الشعر بحر فهو من أعذب جرعة ، خصوصا ركن التجنيس الذي هو ركن شريعته و بيان شرعته ، وذيباجة صنائعه في صنعته ، وآية سجلته وغاية سجوته ، تشهاد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته ، وتعترف الشعراء برفع محله و محل رفعته ، وتدخل به الألفاظ الفصيحة الأذن بغير إذن لشماعة حقه وحق شفعته ، فهو في البديع خال خده ، وطراز برده و فص خاتمه وجود حاتمه ، متى عد في القصيدة بيت كان الجناس طرازه ، ومتي طاف بالبلاغة متكلم كانت أركانه كعبته. وهكذا جارى الصفدي ذوق العصر ، فجاء نشره بين المطبوع والمصنوع)).

اسم المحاضرة : ابن نباتة المصري (حياته ونثره).

ابن نباتة المصري (٦٨٦ – ٧٦٨ هـ) :

عرف شاعران كبيران باسم «ابن نباتر»، الأول : ابن نباتة المعادي ، عبدالعزيز بن عمر، اداء شد براء سيف الدولة الحمداني المتوفي سنة ٤٠٥ للهجرة . والثاني : ابن نباتة المصري ، محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد المكتب بجمال الدين الذي نحن بصاعد التعريف به.

ولد ابن نباتة المصري في القاهرة سنة ٦٨٦ للهجرة في أسرة عريقة مشهورة بالعلم والأدب ، يتصل نسبها بعبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل (ت٣٧٤هـ) صاحب الخطب المشهورة. وقد فخر في شعره بالانتساب اليها بقوله:

ورثـــت المفـــظ عـــن ســـلفي وأكـــرم   بـــآل نباتـــــة الغـــــر الســـــراة
فـــلا عجـــب للفظـــي حـــين يحلـــو   فهـــذا الفطـــر مـــن ذاك النبـــات

تفرغ منذ الصغر لدراسة العلوم والآداب، واستكمل ثقافته في وقت مبكر، و أخد من كبار العلماء والأدباء في عصره ، ذكرهم في إجازته للصفدي. وبعد أن ذاعت شهرته سافر إلى الشام سنة ٧١٧ للهجرة ، واستقر في كنف العالم الأديب أبي الفداء اسماعيل بن علي ، ملك حماة ، والف باسمه أغلب كتبه ، ونظم فيه شعر كثيرة ، وكانت أيامه التي قضاها في ربوع دولة هذا الملك من أجمل الأيام وأحلاها ، وقد أشاد به وشكر له عطنه وتقديره ، مثل قوله:

فلأشـــــكرن جميـــــل مـــــا أوليتنـــــي   شـــــكر الريـــــاض الزهـــــر للمـــــاء الغـــــدق
بمـــــدائح أهلتنـــــي لنظامهـــــا   فغـــــدت محـــــررة وعنقـــــي مســـــترق

وأصبح صفياً للملك المؤيد وخليلا، وتفتحت اكمام شاعريته في ظله ، وأخرج الطف أشعاره وأعذبها في حماة ، وأقر بذلك في قوله:

لـــــولاك مـــــا أمســـــت قـــــرى   حتـــــي الكليلـــــة شـــــاعره
أنـــــت الـــــذي روّت غمـــــا   ئـــــه ربـــــاي العـــــاطره
فلقـــــد وجـــــدتُ ديـــــار مـــــل   ك بالســـــعادة عـــــامره

وبعد خمسة وأربعين سنة قضاها في ارض الشام عاوده الحنين إلى مصر مسقط رأسه وملعب صباه ، وأخيرا ارتحل اليها بإعانة السلطان الناصر حسن ووصلنا في ربيع الأول سنة ٧٦١ للهجرة، ولم يكن بمقدوره مزاولة العمل الكبر سنه ونحول جسمه ، و اثنى عليه السلطان وأمر له راتبة مقطوعة وأصبح شاعره المفضل ، و نسخ له ديوان شعره بناء على طلب منه ، والف لنفسه ديوان خطب جمعية منبرية بعدد اسابيع السنة.

آثاره :

ترك ابن نباتة مجموعة كبيرة من الآثار ، طبع قسم منها وباقي النسم الآخر مخطوطة ، نذكر هنا أهمها :

١- تعليق الديوان ، جمع فيه ما أنشأه في أثناء عمله في ديوان الانشاء .

٢- حظيرة الأنس إلى حضرة الناس ، وصف فيها رحلته إلى بيت المقدس ، وردت منها مقاطع وفقر في كتاب : ((ثمرات الأوراق الابن حجة الحموي ص٣٥٨)).

٣- خبز الشعير ، جمع فيه كل ما سرق منه.. تلميذه. الي نه دي او عارضه به ، أوردها ابن حجة الحموي في خزانته ص ١٣، ١٤.

٤ - ديوان خطب .

٥ - ديوان شعره .

٦- سجع المطوق .

٧- سرح العيون، في شرح رسالة ابن زيدون .

٨- سلوك دول الملوك .

٩- سوق الرقيق ، قصائد، في الغزل والنسيب .

١٠ شعائر البيت التقوى ، نسبة إلى تقي الدين . عمر الأيوبي جد الأسرة - التي حكمت حماة .

١١ - الفاضل من إنشاء الفاضل .

١٢ - القطر النباتي .

١٣ - مختار ديوان ابن الرومي .

١٤ - مختار ديوان ابن قلاقس .

١٥ - المفاخرة بين السيف والقلم .

١٦ - مطلع الفوائد ومجمع الفرائد .

١٧ – منتخب الهدية في المدائح المؤيدية ، وهو قصائد في مدح الملك المؤيد اسماعيل بن علي .

١٨ - نظم السلوك في مصائد الملوك ، وهو أرجوزة في وصف رحلة صيد ، عدد أبياتها ١٦٧ .

نثره واسلوبه:

برز ابن نباتة المصري في ميداني الشعر والنثر ، وقد أثنى عليه الدارسون التهامي، وأشادوا بترته الحالية في الكتابة ، قال ابن تغري بردي : «وله الشعر الرائق ، والنثر الفائق ، وهو احد من حذا حذو التراضي الفاضل ، وسلك طريقه ، وأجاد فيما سالك ، وكان خطه في غاية الحين» .

لقد كان معجبة بالتراضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ) أيما إعجاب ، وقاب انتخب مختارات من نثره في مجلد سماه «الفاضل من إنشاء الفاضل» والمعروف عن القاضي الفاضل أنه صاحب قلم رفيع في الكتابة ، و طريقة خاصة في الإنشاء، قال النويري: «إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنماء ووقت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، و من بحر علم، رويت ذوو الفضائل واغترفت، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين اية استمرت نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه و عصره، وناشر الوي: الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة، والفاضل بغير إطالة» .

وكان القاضي الفاضل يخيل إلى تشخيص المعاني ، والتوفر على الوان البديع ، ولا سيما الجناس والنورية وتضمين الشعر والاقتباس من آيات الذكر الحكيم والإكثار من العطف والترادف ، والجنوح إلى الإطناب .

ولم يلتزم ابن نباتة المصري كل الالتزام بالطريقة الفاضلية ، فقد تخفف منها في كثير من الأحيان ، ومال إلى الأسلوب المطلق ، ومثال ذلك ما نراه في كتابه سرح العيون ، قال في ولادة بنت المستكفي : «كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الغرب الأمويين المنسوبين إلى عبدالرحمن بن الحكم المعروف بالداخل ، من بني عبدالملك بن مروان ، تسمى ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبدالرحمن، ابتذل حجابها بعد نكبة ابيها وقتله ، وتغلب ملوك الطوائف عليه ، في خبر يطول شرحه ، وصارت تجلس للشعراء والكتاب و تعاشر هم و تحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل ، و أدب غض ، ونوادر عجيبة ، ونظم جيد ... وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل اليها ، واكثر غزل شعره فيها وفي اسمها ، ثم إن الوزير أبا عامر بن عبدوس أيضا هام بها وكلف بعشرتها ، وكان قصدهم الظرف والأدب ، وكانت ولادة كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة».

ونأخذ من نشرة المسجوع الذي تغلب عليه الصنعة . المتكلفة ، التهنئة الآتية التي أرسلها إلى صديق له بعد شفائه من مرض الم به : «لا زالت الصحة قرينه حتى لا يعتل في منازله غير مرور النسيم ، ويصف شوقا يزيد بالأنفاس وقدا ، ويجدد للأحشاء وجدا ، ويباشر القلب المغرم فيمد له من عذاب الانتظار مادا. وينهي أنه جهز هذه الخدمة نائبة عنه في استجلاء وجه اكرم الأحبة ، وتصافح اليد التي أقلام كتبها في شكوى البعاد أطبه ، مبدية إلى العلم الكريم أنه مع ما كان يكابده من الأشواق ، ويعالجه من خواطر الإشفاق ، بلغه ضعف الجسد الموقى ، وعارض الألم الذي استطار من جوانح المحبين برقا ؛ فلا يسأل الجناب الكريم عن قلب تألم ، وصدر صامت بالهموم ولكنه بجراح الأشجان تكلم ، ولسان أنشد :

ألا ليتنـــي حملـــت مـــا بـــك مـــن ضـــنى علـــى أن لـــي منـــه الأذى ولـــك الأجـــرا

إن التكثف واضح في هذه التهنئة ، يبدو أن الأذواق كانت تستأنس آنذاك بمثل هذا الأسلوب الذي نراه مصنوعة يكد الذهن ويتعب الفكر . ونقف عند جزء من رسالته (مفاخرة بين السيف والقلم) التي تخفف فيها عن التعقيد المذموم ، قال على لسان القلم يرد على السيف : « أ تفاخرني ، وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، وأنا المعمر ، وأنت المدمر ، وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد ، وأنت العابث وأنا المجود ومن أولى من القلم بالتجويد ، فما أقبح مشبهك ، وما أشنع يوما ترى فيه العيون وجهك ، أعلى مثلي يشق القول ، ويرفع الصوت والصول ، وأنا ذو اللفظ المكين ، وأنت ممن يدخل تحت قوله تعالى (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) فقد تعديت لك وطلبت مالم تبلغ به جهدك . هيهات أنا القائم بمصالح الدول وأنت في الغمد طريح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح ... والساعي في تدبير حال القوم ، والفني لنفعهم الحمر اذا كان نفعك يوما أو بعض يوم . فاقطع عنك أسباب المفاخرة ، واستر أنيابك عند المكاشرة ، فما يحسن بالصامت محاورة المفصح ، والله يعلم المفسد من المصلح ».

إن صنعة ابن نباته في هذه المفاخرة مقبولة لأثقل فيها وما جاء فيها من سجع لم يكن حائلا دون فكره وأسلوبه . لقد جارى ابن نباته الذوق العام في عصره ، وكسب ثناء الدارسين ، ولا عجب حين قال فيه تاج الدين السبكي : ((حامل لواء الشعراء في زمانه ، مارأينا أشعر منه ، ولا أحسن نثرة ، ولا أبدع خطأ ، له فنون ثلاثة لم نر من لحقه ولا قاربه فيها : سبق الناس إلى حسن النظم ، فما لحقه لاحت في شيء منه ، وإلى أنواع النثر فما قاربه مقارب إلى ذرة منه ، وإلى براعة الخط فما قدر معارض على أن يحكي ليه خطأ أو يجاريه في أصول كتابته وأسمائها وجريانها)).

مصادر المحاضرات ومراجعها المعتمدة:

- الادب العربي في العصر الوسيط : د. ناظم رشيد ، جامعة الموصل ، ط١، ١٩٩٠.
- الادب العربي في العصر المملوكي : د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف – القاهرة ، ١٩٧١.
- الادب المصري في ظل الحكم العثماني : محمد سيد كيلاني ، دار القومية – القاهرة، ١٩٦٥.
- بلوغ الامل في فن الزجل : ابن حجة الحموي ، تحقيق : د. رضا محسن القرشي ، وزارة الثقافة- دمشق ، ١٩٧١.
- البند في الادب العربي : عبد الكريم الدجيلي ، مطبعة المعارف – بغداد ، ١٩٥٩.
- تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات - : د.شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة ، ١٩٨٠.
- تاريخ الادب العربي في العراق: د. عباس العزاوي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي- بغداد ، ١٩٦٠.
- ديوان ابن نباتة المصري ، مطبعة التمدن- القاهرة، ١٩٠٥.
- ديوان ابي حيان الاندلسي : تحقيق : د.احمد مطلوب ، د.خديجة الحديثي ، مطبعة العاني – بغداد ، ١٩٦٩.
- ديوان ابي معتوق، تحقيق : سعيد الشرتوني ، المطبعة الادبية – بيروت ، ١٨٨٥.
- ديوان البوصيري ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، البابي الحلبي – القاهرة ، ١٩٧٣.
- ديوان صفي الدين الحلي ، مطبعة دار صادر – بيروت ، ١٩٦٢.
- ديوان الكان والكان في الشعر الشعبي العربي القديم : د. كامل مصطفى الشيبي ، دار الحرية للطباعة – بغداد ، ١٩٧٨.
- الزجل في المشرق : د. رضا محسن القرشي ، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٩٧٧.